شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١ إلى الدرس ٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/٠٢ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فإن نِعَم الله ﷻ على عباده كثيرةٌ لا تحصى وعديدةٌ لا تُستقصى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] . وإن أجلّ نعَم الله تبارك وتعالى على عباده هدايته لهم إلى دينه الحنيف الذي ارتضاه تبارك وتعالى لعباده دينا ، كما قال ﷻ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] . فالإسلام أعظم منّة وأكبر عطية أنعم بها تبارك وتعالى على عباده ، ومَن منّ الله عليه بالإسلام فليعرف نعمة الله العظيمة عليه بهذا الدين ، وليعرف فضل هذا الدين ومكانته؛ فضل الإسلام ، وحقيقة الإسلام ، وما هي الأمور التي تنافي الإسلام أو تنافي كماله الواجب ، يتعلم ذلك ليزداد استمساكاً ومحافظةً على هذا الدين وعنايةً به .

وبين يدنا كتابٌ نافع جداً في بيان فضل الإسلام لإمامٍ وعلَمٍ نفع الله تبارك وتعالى به في مؤلفاته وكتبه القيمة التي انتشرت في أنحاء العالم ؛ بياناً للدين وبياناً للتوحيد وبياناً للإسلام الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده ، وهو الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له . وبين يدينا كتابٌ له عظيم عنوانه: «فضل الإسلام» ؛ وحقيقةً ؛ عندما تقرأ عن فضل الإسلام تستفيد فوائد عديدة ، أهمها ما يلي :

- أولا : أن تستشعر وتستحضر نعمة الله تبارك وتعالى عليك بهذا الدين الذي هو أعظم النعم وأجلّ المنن ؛ فيوجِد عندك هذا الاستحضار شكراً لله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة ، ومن شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العمل بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبأ:١٣]؛ العمل بهذا الإسلام والمحافظة عليه والاستمساك به والبُعد عن الأمور التي تُنقصه أو تُضعفه كل ذلك من شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة .
- الأمر الثاني في دراستك وقراءتك عن فضل الإسلام ؛ أن هذا سبب من الأسباب المعينة لك على الثبات على هذا الدين والمحافظة عليه والعناية به .
- الأمر الثالث : أن معرفة فضائل الإسلام تزيد المسلم في إسلامه قوةً وفعلاً لأوامر هذا الدين وبُعداً عما حرمه الله تبارك وتعالى على عباده ، لأن معرفة الفضائل توجِد في العبد الرغبة في الزيادة من هذا الدين والعناية به.

- الأمر الرابع : أن معرفة فضائل الإسلام توجِد عند العاقل زهداً في البدع والمحدثات والأمور التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ؛ لأنها ليست من الإسلام ، وهذه الفضائل مختصة بالإسلام الذي بعث الله تبارك وتعالى به رسله ورضيه لعباده كما مر معنا قول الله ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فهو الدين الذي رضيه الله تبارك وتعالى لعباده .
- الأمر الخامس : أن واقع الناس الآن – بسبب كثرة الفتن والصوارف والصواد – فيه ضعفٌ في الاستمساك بهذا الدين ، وضعفٌ في العناية به عقيدةً وعبادةً وخُلُقا ؛ فكان الناس بحاجة إلى أن تُبيَّن لهم فضائل الإسلام ليعودوا من النقص إلى التمام ، ومن الضعف إلى القوة .

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه «**فضل الإسلام**» ، وقد ضمّنه مؤلفه رحمه الله فوائد عظيمة تتعلق بالإسلام؛ بياناً لفضله ، وإيضاحاً لحقيقته ، وتحذيراً من الأمور المخالفة له . ونبدأ مستعينين بالله ﷻ في قراءة هذا الكتاب والوقوف على فوائده .

وأشير إلى أمر لابد من الإشارة إليه وهو : أن طريقة هذا المصنِّف – أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – في كتبه كلها : أنه يجمع الآيات والأحاديث الواردة في الباب ولا يزيد على ذلك ، ولهذا سنرى هذا الكتاب لا تجد فيه كلاماً للمصنف وإنما تجد فيه آيات وأحاديث ؛ فهو رحمه الله جمع لك الآيات والأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع ولم يزد على ذلك ، بخلاف كتب أهل البدع فإنهم يجمعون للناس فيها آراءهم وتصوراتهم وعصارات أفكارهم ، أما هذا المصنِّف وأئمة السلف وعلماء السنة في القديم والحديث فطريقتهم جمع الآيات من كلام الله ﷻ والأحاديث في سنة النبي ﷺ وتبويبها وترتيبها ، وربما علّق بعضهم عليها بما يقتضيه المقام من إيضاحٍ وبيان يستفيد منه القارئ .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رسالته فضل الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . باب فضل الإسلام وقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

****

قال المصنِّف رحمه الله : ((**بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين**)) ؛ فبدأ هذا المؤلَّف القيِّم بالبسملة مقتدياً بكتاب الله ﷻ ، ومقتدياً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وطريقته في مراسلاته ومكاتباته ؛ فكان يبدأ بالبسملة .

وقول من يكتب «بسم الله» أي : بسم الله أكتب ، والباء في البسملة باء الاستعانة ؛ فالمبسمِل هو في الحقيقة مستعينٌ بالله جل وعلا طالبٌ عونه متيمِّنٌ بذكر اسم ربه تبارك وتعالى في أول عمله وبداية عمله ؛ ولهذا تُشرع

البسملة في بداية الأعمال ؛ بداية الأكل ، وبداية الشرب ، وعند دخول المنزل ، وعند الخروج منه لأي مصلحة من المصالح ، وعند قراءة القرآن ، وفي أول الصلاة ، فتشرع البسملة في أوائل الأعمال تيمناً وتبركاً بذكر اسم الله ﷻ وطلباً لمدِّه وعونه وتوفيقه ﷻ ؛ لأن الباء في «بسم الله» باء الاستعانة ، ومن يكتب ويبدأ كتابته بـ «بسم الله» فتقدير قوله هذا : أي بسم الله أكتب ، فالجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف تقديره : أكتب ، وإن كان المبسمِل قارئاً فالتقدير : باسم الله أقرأ ، داخلاً : بسم الله أدخل ، بسم الله أخرج. ويُحذف متعلق الجار والمجرور للعلم به .

قال : ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) ؛ ذكر ثلاثة أسماء حسنى لله جل وعلا :

«**الله**» : وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

و «**الرحمن الرحيم**» : اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ ؛ و«**الرحمن**» : دالٌ على الرحمة التي هي الصفة القائمة بالله ، و «**الرحيم**» دالٌ على تعلقها بالمرحومين كما قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣] ، ولا يوجد "كان رحماناً بالمؤمنين " .

قال : ((**وبه نستعين**)) ؛ به : أي بالله ﷻ ، نستعين : أي نطلب العون .

وطلب العون من الله في كل عمل ديني ودنيوي أمرٌ لابد منه ؛ لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله ؛ فلابد من طلب العون والذل بين يدي الله تبارك وتعالى والاستعانة به وحده جل وعلا ؛ لأن الأمور كلها بيده سبحانه فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يستطيع الإنسان أن يقرأ كتاباً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يحضر درساً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يعمل بذكرى أو موعظة إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يؤدي صلاةً إلا إذا أعانه الله ، قد قال الله ﷻ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور:٢١] . فالأمور كلها بتوفيق الله جل وعلا وعونه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) ، وفي سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] . فالاستعانة – وهي طلب العون – عبادة عظيمة لابد منها في كل شؤون الإنسان وأموره ومصالحه الدينية والدنيوية ؛ يطلب عون الله تبارك وتعالى ومدَّه ﷻ وتوفيقه .

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ أي هذا باب معقود لبيان فضل الإسلام، و «**فضل**» هنا مفرد مضاف ، والقاعدة في المفرد إذا أضيف أنه يعُم ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١] أي نِعَم ربك . «فضل الإسلام» : أي فضائل الإسلام ، فالمفرد إذا أضيف يعُم. والإسلام له فضائل لا تحصى ؛ بل أن كل خير يناله العبد في دنياه وأخراه هو ثمرة من ثمار الإسلام ونتيجة من نتائجه ، وكل شر يناله العبد في دنياه وأخراه فسببه تضييع الإسلام ؛ الإسلام سبب العز والرفعة والتمكين والأمن والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتضييعه هو سبب الحرمان

والخسران في الدنيا والآخرة . ففضائل الإسلام لا تعد ولا تحصى ، وهذا الباب عقده المصنف ليبين شيئاً من فضائل الإسلام وفضائل هذا الدين العظيم .

ومعرفة فضائل الإسلام مفيدة للمسلم ولطالب العلم ؛ لأنها -كما تقدم - تحرك في القلب شكر المنعِم ، وتعين على الثبات ، وتكون سبباً للزيادة من هذا الدين والمحافظة عليه ، وسبباً للبُعد عن الأمور الصادّة عنه والصارفة عنه وهي كثيرة ؛ فمعرفة فضائل الإسلام والعناية بها مفيدة جداً للمسلم ، خاصةً في مثل هذا الزمن الذي راجت فيه الدعوات الباطلة للرذيلة من جهة ، وللضلالات بأنواعها من جهة أخرى ؛ فاحتاج المسلم أن يقف على فضائل دينه لتكون هذه المعرفة لفضائل الدين سبباً لزيادة الاستمساك به والمحافظة عليه والثبات عليه والبُعد عن الأمور المخالفة له ؛ وإن بُهرِجت وزُيّنت وكثرت دعاياتها فلا يغتر بها المسلم ، لا يغتر بها العاقل ، بل يقف على دينه وعلى فضائله ويستمسك به إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى وهو على ذلك ،كما قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ والإسلام الذي ألَّف المصنف هذا الكتاب لبيان فضله هو دين الله ﷻ الذي رضيه لعباده ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقال ﷻ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] ؛ فالإسلام هو دين الله الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده واختاره لهم وأمَرهم به ، ولا يقبل لهم ديناً سواه .

والإسلام : هو الاستسلام لله جل وعلا ، وقد قال مصنف هذا الكتاب في تعريفٍ له قيّم للإسلام : «الإسلام : هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام : أن تكون مستسلماً ؛ أي منقاداً مطيعاً ممتثلاً ، ما يأمرك الله تبارك وتعالى به تطيعه فيه وتمتثل أمره ﷻ وتنقاد ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ)) وقال : ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)).

وأعظم ما يجب في هذا الباب : الاستسلام لله بالتوحيد ؛ بأن تكون عبداً موحداً ، أمَرك الله بالتوحيد والإخلاص وخلقك لذلك ؛ فالواجب أن يستسلم العبد لذلك .

وانظر أروع مثلٍ في تحقيق الاستسلام للملِك العلَّام ﷻ في قول إمام الحنفاء ، وانظر ما جاء قبله من تمهيد وتوطئة لذلك بقوله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢] ؛ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ ؛ لاحظ هذا الانقياد الفوري والطواعية السريعة والاستجابة بلا تردد ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ وأنا عبدٌ مطيعٌ منقاد مستسلم لله رب العالمين ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ . فالإسلام هو دين الله ﷻ وهو يعني : الانقياد لله تبارك وتعالى بالتوحيد والإخلاص ، والبراءة من الشرك والبعد عنه ، والامتثال لله تبارك وتعالى بطاعته ﷻ ؛ بأن يكون المسلم عبداً مطيعاً لربه ﷻ فيما يأمره وفيما ينهاه؛ يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي .

وعندما نتأمل في نصوص القرآن والسنة التي ورد فيها ذكر الإسلام نجد أن للإسلام في النصوص إطلاقين :

١- تارة يطلق الإسلام منفرداً .

٢- وتارة يطلق الإسلام مضموماً إلى الإيمان .

- والإسلام عندما يأتي في النصوص مفرداً فإنه يشمل الدين كله ، فقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ونحوها من الآيات ؛ المراد بالإسلام هنا : الدين كله ؛ عقائده وعباداته وأخلاقه كل ذلك داخل في قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فالإسلام عند الإطلاق المراد به الدين كله بعقائده وأعماله وأخلاقه، المراد به الدين كله عقيدة وشريعة ؛ هذا عند الإفراد .
- الإطلاق الثاني : يأتي الإسلام مضموماً إلى الإيمان ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] ، ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦] ، في الحديث قال سعد للنبي عليه السلام : «مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ!! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا» ، فَقَالَ النبي ﷺ : ((أَوْ مُسْلِمًا)) وأعاد سعد وأعاد النبي عليه السلام ، فيأتي في بعض النصوص ذكر الإسلام مضموماً إلى الإيمان ، ففي هذه الحالة يراد بالإسلام : أعمال الدين الظاهرة ، ويراد بالإيمان : عقائد الدين الباطنة كما جاء ذلك في حديث جبريل المشهور قال : ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)) ؛ ففسَّر الإسلام بالأقوال والأعمال الظاهرة . ثم قال: ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ؟ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ؛ ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي في القلب ؛ وهي الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة ، والإيمان بالكتب ، والإيمان بالرسل ، الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

فأصبح يراد بالإسلام والإيمان حال اجتماعهما –كما في النصوص التي أشرت إلى جملة منها – يراد بالإسلام : جنس الأقوال والأعمال ، ويراد بالإيمان: جنس التصديق والإقرار ؛ فكل ما كان عملاً أو قولاً فهو من الإسلام ، وكل ما كان تصديقاً وإقراراً بالقلب فهو من الإيمان . وهذا مبني على قاعدة ليست مختصة بهذين الاسمين ؛ بل تتناول كثير من الأسماء الشرعية ، والقاعدة هي قول أهل العلم : «إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ متعددةٍ عند إفراده وإطلاقه ؛ فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دالٌ على باقيها» ، هذه القاعدة تشمل: الإسلام والإيمان ، والبر والتقوى ، والكفر والشرك ، والفقير والمسكين ، وأسماء شرعية كثيرة جداً يعبّر بعض أهل العلم عن هذا النوع من الأسماء بقولهم: «إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت» ؛ إذا اجتمعت أي في الذكر – ذُكرت في نص واحد – افترقت في المعنى ، وإذا افترقت في الذكر : أي ذُكر كل واحد منها مفرداً اجتمعت في المعنى . وهذا كما قدمت يتناول الإسلام والإيمان ويتناول أيضا أسماء شرعية كثيرة جداً .

وعلى ضوء ما تقدم لو قيل لنا : من المسلم ومن المؤمن ؟ وهذا سؤال مهم . قد مر معنا قول الله ﷻ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الآية واضحة أن رتبة الإيمان رتبة أعلى من الإسلام ، ولهذا لما قال هؤلاء الأعراب آمنا وهم لم يصِلوا إلى هذه الرتبة –رتبة الإيمان– قال ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؛ يعني ما زلتم في رتبة الإسلام ولم تصِلوا إلى رتبة الإيمان بعد . والدين رُتَب ومراتب ؛ ومراتبه ثلاث جاءت في حديث جبريل ، ذكر الإسلام ، ثم ذكر الإيمان ، ثم ذكر الإحسان وقال في تعريفه ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) ، ثم ختم الحديث بقوله: ((ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ؛ فديننا مراتب ثلاثة : الإحسان، والإيمان ، والإسلام . رتبة الإحسان هي أعلى رتب الدين ، ورتبة الإيمان أقل منها ، ورتبة الإسلام أقل، وليس وراء الإسلام إلا الكفر .

أحد العلماء المتقدمين ضرب مثالاً جميلاً لتوضيح هذه الرتب الثلاث ؛ فوضع ثلاث دوائر كل دائرة في داخل الأخرى ، دائرة صغيرة ، ويحيط بها دائرة أكبر ، ويحيط بها دائرة ثالثة أكبر ، فقال عن الدائرة الصغيرة هذه الإحسان ، والدائرة الأوسع منها قال هذه الإيمان ، والدائرة الأوسع قال هذه الإسلام ، فإذا دخل الإنسان في دائرة الدين أول ما يبدأ بالدخول يكون دخوله في أول رتب الدين وهي الإسلام . وما هو الإسلام الذي هو أول رتب الدين ؟ أن يستسلم ؛ ينطق بالشهادتين ويمتثل ما تقتضيه الشهادتان من طاعة وامتثال لله فهذا مسلم ، يفعل شعائر الدين الظاهرة مع عنايته بالإسلام وفهمه له وتحققه القلبي بهذا الدين وملأ قلبه بعقائده ينتقل من رتبة الإسلام إلى الإيمان ، وهي رتبة أعلى ، وهي عمارة القلب وملأه بحقائق الإيمان ، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن عمار بن ياسر ((إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً إِلَى مُشَاشِهِ)) يعني إلى أطراف قدميه ، مُلأ من الداخل إيمانا ، هل

يُسوَّى بين من امتلأ قلبه إيماناً وبين من هو مسلم يعبد الله ولكنه على حرف – على طرف– !! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج : ١١] أقل فتنة تبعده عن دينه !! .

فإذاً المسلم : هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، لأن الأعمال الظاهرة بدون شيء من الإيمان يصحح هذا الإسلام لا تُقبل ؛ لأن الإيمان الباطن أساس لقبول العمل الظاهر ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[الإسراء:١٩] ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل : ٩٧]. فإذاً المسلم هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، والمؤمن هو الذي عُمِر قلبه بحقائق الإيمان ، وهذا ما جاء الإشارة إليه في قوله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ : يعني يتغلغل ويتمكن في القلب ، وقد سُئل أحد السلف: أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال: «يزيد حتى يكون كأمثال الجبال ، وينقص حتى لا يبقى منه شيء» . فحتى يتغلغل الإيمان في القلب ويتمكن في القلب ويرسخ في القلب ينتقل الإنسان إلى رتبة الإيمان ، وهي الرتبة الأعلى .

ومن نرى فيه خيراً من أهل هذا الدين نحكم عليه بالإسلام ، لأن حُكمنا عليه بالإسلام حُكم بالظاهر – بما ظهر لنا منه – فنقول مسلم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] ، أما الباطن فأمره لا يعلمه إلا رب العالمين ﷻ . فلا يزكي الإنسان نفسه بذلك ولا يزكي غيره ، وإنما يجاهد نفسه على تحقيق الإيمان وتقويته والبحث عن الأسباب التي تزيده وتقوّيه ، والبعد عن الأسباب التي تضعفه وتنقصه وتوهّيه .

ثم أعلى من ذلك رتبة الإحسان ؛ وهي أعلى رتب الدين . وإذا تصوّرت هذه على ضوء المثال الذي ضربه أحد السلف ؛ تعلم من خلال هذا المثال أن كل محسن مؤمنٌ مسلم ، لأن الذي يصبح في الدائرة الصغرى تحيط به الدوائر الأخرى ، ولا يصل إلى الإحسان إلا من خلالها ، فكل محسن مؤمن مسلم ، وكل مؤمن مسلم .

ثم إذا أردنا أن نعكس نقول : ليس كل مسلمٍ مؤمناً ولا محسنًا ، وليس كل مؤمن محسنا . وهذا واضح في الآية ؛ رب العالمين قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي لم تصِلوا بعد إلى رتبة الإيمان ، مازلتم في رتبة الإسلام ، فليس كل مسلمٍ مؤمناً ، يعني ليس كل من دخل الإسلام بلغ رتبة الإيمان هذه الرتبة العالية ، متى يبلغها ؟ إذا تمكن الإيمان من قلبه ، إذا تمكن الإيمان وتمكنت عقائد الإيمان الصحيحة من قلبه ورُزق الإيمان في قلبه يبلغ حينئذ رتبة الإيمان ، كثير من الناس تجده يحدَّث عن الإسلام وعن أعمال الإسلام ويراها أعمال جميلة وطيّبة فينطق بالشهادتين ويسلِم ويبدأ يصلي ويصوم ولكن حقائق الإيمان الباطنة ليست متمكنة في قلبه !! فهو

في رتبة الإسلام ، وإذا دخل الإيمان وتمكن من قلبه يصل إلى رتبة الإيمان ، ثم إذا بلغ حاله في عبادة الله والتقرب إليه الرتبة التي جاء بيانها في قوله ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) فهذه رتبة الإحسان . والإحسان له ركن واحد وهو ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)) : أي أن يكون الإنسان في عبادته لله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة .

إذاً الإسلام : هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والانقياد لأمره ، وهو يشمل الدين كله عند إفراد الإسلام وإطلاقه ، ويكون مختصاً بأعمال الإسلام الظاهرة عند ضمّه للإيمان وقرنه معه في النص الواحد .

قال: ((**باب فضل الإسلام وقول الله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾)) ؛ هذه الآية عظيمة جداً في بيان قيمة هذا الدين ومكانته من جهة ، وبيان تمامه وكماله من جهة أخرى وأنه لا نقص فيه ؛ دين الإسلام دين تام كامل لا نقص فيه .

قوله ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ لأن شرائع الدين وأوامره جاءت تباعاً ، لم يؤمر بها الناس كلها في زمن النبي ﷺ دفعة واحدة ؛ وإنما جاءت تتنزّل بالتدريج ، يأتي أمر ثم يأتي آخر ثم يأتي آخر إلى أن كمُل الدين ، جاءت فرائض الإسلام وواجباته واحداً تلو الآخر وأحياناً يكون بين فريضة وفريضة ليس شهر ولا شهرين ربما سنة أو سنتين ، فجاءت فرائض الإسلام وواجبات الإسلام واحداً تلو الآخر إلى أن كمل الدين ؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لم ينزل بعدها حلال ولا حرام وتوفي بعدها النبي بقرابة ثمانين يوماً ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، لماذا ؟ لأن بنزول هذه الآية كمُل الدين .

وهذه الآية الواجب على كل مسلم أن يشتد فرحه بها وأن تعظم في قلبه – والقرآن كله عظيم – لأنها آية تخبرك وتدلّك أن الدين الذي أكرمك الله به دين كامل ، لم يمت عليه السلام حتى أنزل الله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فهو دين كامل لا نقص فيه ؛ كامل في عقائده ، كامل في عباداته ، كامل في أخلاقه ومعاملاته ، كامل من كل وجه ، دين كمّله من أنزله وهو رب العالمين سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في الصحيحين عن طارق بن شهاب قال: ((جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا – عرفوا قيمة الآية – قَالَ : وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ عز وجل : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» ؛ نزلت هذه الآية في هذا اليوم العظيم المبارك الذي هو سيد الأيام على الإطلاق ؛ فيوم عرفة سيد أيام السنة ، ويوم الجمعة سيد أيام الأسبوع ، خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ عرفة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مبيّنا هذه الخيرية : ((خَيْرُ

الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) .

وتأمل هذه اللطيفة : كان ﷺ في خير الأيام يُكثِر من خير الكلام ، لأن خير الكلام : لا إله إلا الله ، وخير الأيام : يوم عرفة ؛ فناسب غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام ، ليس في الكلام خير من لا إله إلا الله ، وليس في الأيام خير من يوم عرفة ؛ فكان في غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام .

فالشاهد : أن يوم عرفة خير أيام السنة ، ويوم الجمعة خير أيام الأسبوع ، ويوم الجمعة يوم عيد ، فيقول عمر: ((إِنِي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)) ؛ أما الساعة : قال ((عَشِيَّةَ عَرَفَةَ)) ، وأما اليوم : قال ((فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ)) ، فهي نزلت في هذا الوقت المبارك العظيم . ثم مات النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بثمانين يوماً تقريباً ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. إذاً الواجب على أهل الإسلام أن يعرفوا هذه الآية ومكانتها التي تدلهم على فضل الإسلام .

من أعظم فضائل الإسلام: أنه دينٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وإذا عرفت أن دين الإسلام كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه فعليك أن تعرف أن كل بدعة فهي ضلالة كما قال ذلك رسول الله ﷺ ، بل لم يقل ذلك مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث ولا عشر ،كان إذا خطب الناس قال : ((أما بعد ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) لم يستثنِ ﷺ بل عمّم وأطلق ((كل بدعة ضلالة)) .

اسأل هنا سؤال : لماذا كل بدعة ضلالة ؟ لأن الدين كامل . من يقول : في البدع بدعة ليست ضلالة بل هي حسنة ؛ فإن هذا يعني أن في الدين أمور حسنة مات نبينا ﷺ ولم يبيّنها ، وهذا أمر خطير ؛ ولهذا قال إمام دار الهجرة؛ الإمام مالك بن أنس رحمه الله ، قال كلمة عظيمة جداً : «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة ، الدين هو الدين الذي مات النبي ﷺ وترك الناس عليه ، وما سوى ذلك محدثات وأمور مردودة على فاعلها ؛ ولهذا قال ﷺ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، قال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) ، قال: ((لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) فالدين هو ما كان عليه رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ اليوم : هو يوم عرفة ؛ في يوم عرفة عشية عرفة والنبي ﷺ واقف في عرفة نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ ففي يوم عرفة الدين كمُل بحلاله وحرامه وفرائضه وواجباته وأوامره . ولهذا بعد يوم عرفة عاش النبي ﷺ فترة ليست بطويلة لم ينزل فيها حلال ولا حرام، لأن الدين كمُل في ذلك اليوم .

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ؛ تمت النعمة بكمال الدين ؛ وهذا فيه فائدة لك : أن تمام النعمة عليك بحسب حظك من الدين ؛ فكلما كان حظك من الدين أعظم كان نصيبك من النعمة أوفر .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ؛ وهذه فضيلة من فضائل هذا الدين، وهو أنه دين رضيه الله ﷻ لعباده ، بل لا يرضى ديناً سواه ، ولهذا قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] يعني من ابتغى لنفسه ديناً غير هذا الدين الذي بُعث به النبي ﷺ فلن يُقبل منه ، وليس فقط لا يقبل منه ثم يكون الأمر لا له ولا عليه !! لا ؛ ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

إذاً قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ في هذه الآية ثلاثة فضائل للإسلام :

١) الفضيلة الأولى : أنه دين كامل لا نقص فيه .

٢) الفضيلة الثانية : أن تمام النعمة على العبد لا تكون إلا به.

٣) الفضيلة الثالثة : أنه الدين الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده.

ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذه الآية العظيمة؛ لما اشتملت عليه من بيان فضائل هذا الدين وكمالاته ، وأنه سبب النعم والسلامة من النقم ؛ النعم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، وكذلك البعد من النقم ، كل ذلك لا يكون إلا بالمحافظة على هذا الدين والعناية به عقيدةً وعبادةً وخُلقاً وسلوكا .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ **الآية** [يونس:١٠٤] .

****

ثم ثنّى بهذه الآية العظيمة وهي أيضاً تبين مكانة هذا الدين وعِظم شأنه ؛ بقوة حُججه وبراهينه وأنه دين واضح ؛ براهينه واضحات ، دلائله جليات ، وما سواه أديان باطلة قائمة على الخرافة وعلى الوهم وعلى الظنون الفاسدة والأفكار الكاسدة ، أما دين الإسلام فهو دينٌ عظيم ، دينٌ قائم على البراهين الواضحة والحجج البيّنة والدلائل الساطعة الشاهدة بصدقه وأنه الدين الحق وأنه ليس دينٌ حقٌ سواه ، ولهذا جاء بهذه الآية مبيناً ذلك في فضل الإسلام ومكانته .

قال : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: أي يا رسول الله يا نبي الله قل للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ ؛ يعني إن كان عندكم شك أو ارتياب في أن الدين الذي أنا عليه هو الدين الحق ، إن كانت قلوبكم مرتابة منه وتظنون أن الدين الذي أنتم عليه هو الدين الحق ؛ فإنني أقول لكم ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ .

وتأمل هنا : تأمل بيان كمال هذا الدين وبطلان ما سواه بهذه الكلمة التي أُمِر النبي ﷺ أن يقولها لكل مرتاب شاك مقبِل على عبادة الأوثان والأصنام تاركٍ عبادة الرب العظيم الخالق لهذه الأكوان المتصرف في المخلوقات خلقاً ورَزقاً وإحياءً وإماتةً وتدبيراً ، فيقول : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ؛ لأن كل من يُعبد من دون الله عبادته من دون الله لم يقم عليها أي دليل ، وليس عليها أي برهان ، وليس فيها أي أثارة من علم ، كل عبادة من دون الله عبادة ليست قائمة على دليل ، ولهذا قال عليه السلام كما أخبر الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم:١٩-٢٣] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقال تعالى فيما ذكره عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾[يوسف:٣٩-٤٠] . ولهذا كل تعبّدٍ بغير الإسلام وكل عبادة على غير الإسلام فهي على غير برهان وعلى غير حجة ؛ بل قائمة على الخرافة ، وعلى الباطل ، وعلى الفكر القاصر والتصورات الضعيفة القاصرة.

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن كل من تعبدونه من دون الله عبادته من دون الله ليست قائمة على أي برهان ، هاتوا دليلاً واحداً يبين صحة عبادة هذه الأشياء ، هل هذه الأشياء التي تعبدونها تملك لكم ضراً أو نفعا !! عطاءً أو منعا !! خفضاً أو رفعا !! هل تملك شيئاً من ذلك ؟ هل بيدها إحياء !! هل بيدها إماتة !! هل بيدها تصرف ؟؟ هل.. هل؟؟ ، القرآن جاء بأسئلة كثيرة في هذا الباب تبين فساد عبادات هؤلاء القائمة على الشرك وعلى الخرافة ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأن كل ما يُعبد من دون الله فعبادته قائمة على الباطل.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ هذا برهان واحد من آلاف البراهين ، خذوا برهاناً واحداً ودليلاً واحداً على صحة هذا الدين وهو الإخلاص لله تبارك وتعالى وإفراده ﷻ وحده بالعبادة : ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ من الذي يتوفاكم ؟ موتكم بيد من ؟ ليس بيد أحدٍ إلا رب العالمين ﷻ . ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾هذا برهان واحد من مئات وآلاف البراهين الدالة على وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام لله رب العالمين ؛ الذي بيده أزمّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، ولهذا ساق لهم دليلاً واحداً وأبان أنهم ليس عندهم أي دليل ليس عندهم أي برهان ، فهذا مما يبين فضل دين الإسلام ومكانته ؛ أنه الدين الذي قامت عليه البراهين الظاهرات والحجج الجليات الواضحات، وأما ما سواه من الأديان والعقائد فهي عقائد ليست قائمة على دليل ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .

ومما سبق نستفيد فائدة عظيمة بل قاعدة مهمة وهي : أن الأديان الموجودة على وجه الأرض بين الناس ويعتقدونها ويدينون بها هي على قسمين :

القسم الأول : دين نازل ممن خلق هذا الكون وأوجده ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥] ؛ دين نازل نزل من الله ﷻ ، وانظر في تمام هذا التنزل للدين ونزوله من رب العالمين أن خُتم بقوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ قال عمر ﷺ : «إني لأعرف اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية والساعة التي نزلت فيها هذه الآية ؛ نزلت في عشية عرفة في يوم جمعة» فهو دين نازل ، نزل تِباعاً ، تنزل من رب العالمين إلى أن كمُل وأنزل الله ﷻ مخبراً بكماله وتمامه قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، وهذا الدين النازل من رب العالمين وحده هو الدين الحق ، وما سواه من الأديان التي على وجه الأرض كلها باطلة ، لماذا؟ لأنها أديان نابتة في الأرض ما أنزل الله بها من سلطان . والسلطان : هو الحجة ، وسميت الحجة سلطانا : لأنها تتسلط على القلب ولا يستطيع أن ينفك عنها ؛ خانقة وماسكة بالإنسان . قال﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة .

ولهذا مما سبق نستفيد قاعدة في الباب وهي : أن كل دين لم ينزِّل الله ﷻ به من سلطان فهو دين نابت في الأرض؛ يعني اخترعه الناس بعقولهم ، بأفكارهم ، بآرائهم ، بتجاربهم ، إلى غير ذلك ، وكل دين نابت فهو دين باطل ؛ لأن الله ﷻ لا يرضى أي دين مهما استحسنه الناس ومهما استجودوه ومهما عظموه ، فهو جل وعلا لا يقبل من الأديان إلا الذين الذي نزل منه .

ولو سألتكم الآن : ما هي الأمارة التي يُعرف بها الدين النازل من غيره ؟ أمارة الدين النازل : قال الله قال رسوله ﷺ . فإذا وُجد الدليل من كلام الله أو كلام رسوله عليه السلام فهذا دليل على أنه دين نزل من رب العالمين ، لكن لو قال لك شخص : " نريد أن نفعل كذا نتقرب إلى الله بهذا لأني جربت أنا وشيوخي جربوا مثلا " تقول هذا ليس دليل . أو قال : نريد نعتقد كذا لأن في تصوري وفي خيالي وفي فكري .. وبدأ يسوق لك عقليات وخيالات ، تقول هذا لا يبنى عليه دين ، الدين لا يبنى إلا على شيء نازل من رب العالمين ، وما لم ينزل من رب العالمين فهو باطل مهما استحسنه صاحبه ومهما استجوده ومهما رآه جميلا ؛ فالله ﷻ لا يقبل من الأديان من الأعمال من العقائد إلا ما كان نازلاً منه ، ولهذا قال عليه السلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨] .

****

ثم ختم الآيات بهذه الآية الكريمة في بيان فضل الإسلام ؛ قال : ((**وقول الله تعالى** : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾)) ؛ ناداهم باسم الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وقد قيل في تفسيره هذه الآية: إن المراد بهؤلاء من آمن من أهل الكتاب ، وقيل : إن المراد عموم من آمن. وهو الأقرب والأظهر . ولهذا قيل في معنى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ : أي من آمن من أهل الكتاب يؤتهم نصيبين وافرين من رحمته ؛ نصيبٌ على إيمانهم بالأنبياء ، ثم نصيبٌ على إيمانهم بخاتم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وقيل المراد : عموم أهل الإيمان، وإيتاء الكفلين من رحمته ؛ قيل : على التقوى وعلى الإيمان المأمور بهما في الآية ، وقيل : على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وهو ما يقتضيه الجمع بين التقوى والإيمان في النص الواحد ؛ فالتقوى: اتقاء المحرمات ، والإيمان : العقائد الصحيحة وفعل الأوامر والطاعات . وهذا حال اجتماع الإيمان والتقوى في النص الواحد ، أما إذا ذُكر كل واحد منهما مفرداً شمِل معنى الآخر على ما بُيّن في القاعدة المتقدمة .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ ناداهم باسم الإيمان وأمرهم بمقتضيات هذا الإيمان ؛ تقوى الله والإيمان برسوله ، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ : اتقوا الله وذلك بتحقيق تقواه ﷻ بأن تجعلوا بينكم وبين ما

تخشونه من عقاب الله وسخطه وقاية تقي من ذلك ، وآمنوا برسوله وأنه رسولٌ حق مرسل من رب العالمين ، وهذا الإيمان يقتضي طاعته ﷺ فيما يأمر به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] .

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ وهذه حقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام : تقوى الله والإيمان بالرسول انقياداً وامتثالاً وطاعةً لله ﷻ؛ تقوى الله: بتحقيق توحيده وإخلاص الدين له، والإيمان بالرسول ﷺ : بطاعته وامتثال أوامره عليه السلام واجتناب نواهيه .

أما الفضائل ما هي ؟ قال : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه فضائل للإسلام:

١) الفضيلة الأولى : قال ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ ؛ أي نصيبين وافرين وحظين عظيمين من رحمته ﷻ التي كتبها لأهل الإيمان وأهل الإسلام .

٢) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ ؛ أي أن استمساك العبد بالإسلام وطاعته لرسوله ﷺ وإيمانه بما جاء به الرسول عليه السلام ومعرفته بذلك هو في الحقيقة نور يضيء له طريقه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾[الزمر:٢٢] ، فمن كان عنده الإسلام فعنده نور يضيء له الطريق في الظلمات ؛ ولهذا أيضا قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ، فالإسلام نور وضياء يعرف به صاحبه الحق من الباطل والهدى من الضلال ، يعرف به الطريق الذي يوصله إلى رضا الله تبارك وتعالى وجنات النعيم . قال ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ؛ أي بهذا النور .

٣) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي يغفر لكم ذنوبكم . والمغفرة : هي العفو والصفح والستر ، وقد قال عليه السلام ((الْإِسْلَام يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما أنه قال : ((الْحَجّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما قال : ((التوبة تجبّ ما قبلها)) فالإسلام وتحقيقه أعظم ما تمحى به الخطايا وتُكفّر به السيئات .

قال: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ خُتمت هذه الآية بهذين الاسمين لتعلقهما بالمعنى الذي ورد في الآية ، فالمعنى الذي ورد في الآية الدعوة للإسلام وتحقيق تقوى الله وطاعة رسوله عليه السلام وبيان ما يترتب على ذلك من الآثار والعوائد ومنها : إيتاء الله ﷻ لمن كان كذلك كفلين من رحمته ، ويجعل له نورًا يمشي به ، ويغفر له ؛ وهذا كله من آثار هذين الاسمين العظيمين «الغفور الرحيم» ، فالله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً ورحمةً ومغفرةً وفّقه لهذه الأعمال وجعله من أهلها فينال بذلك رحمة الله ﷻ ومغفرته. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد:

معاشر المؤمنين : في موضوع فضل الإسلام والحديث عن فضائل الإسلام –والإسلام فضائله لا حصر لها ولا عد– قد مر معنا من فضائل الإسلام ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] ؛ فهذه ثلاث فضائل للإسلام ذُكرت في هذه الآية الكريمة ؛ فهو الدين الذي أكمله الله ﷻ لعباده ، وهو الدين الذي به تمام النعمة على العباد ، وهو الدين الذي رضيه الله ﷻ لعباده ديناً ولا يقبل منهم ديناً سواه كما قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام : أنه الدين الذي قامت عليه ودلت عليه الحجج الواضحات البينات وكل ما سواه من الأديان ليس لها حجة ولا برهان وما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وقد مر معنا في هذا المعنى قول الله ﷻ :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤]

ومر معنا كذلك من فضائل الإسلام العظيمة : أن من كان مسلماً مؤمناً متقياً يُؤتى أجره يوم القيامة مرتين ، ويؤتيه الله ﷻ نوراً يُبصر به الطريق ويرى به السبيل ، وتُغفر له ذنوبه كما هو مبيَّن في قوله جل وعلا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨]

وبعد هذه الفضائل المنتقاة من كتاب الله ﷻ ؛ يشرع المصنف رحمه الله وغفر له في ذكر بعض فضائل الإسلام التي وردت في سنة النبي الكريم ﷺ .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ ؛ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ ، ثُمَّ

قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ ، فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا : مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !! قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ، قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ))]

****

أورد المصنف هنا هذا الحديث العظيم في بيان فضل الإسلام وأنه أفضل دين أنزله الله ﷻ على عباده وختم به الأديان ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا الدين العظيم الذي هو آخر الأديان المنزّلة من الله ﷻ على عباده، وقد شاء تبارك وتعالى أن يكون هذا الدين الذي هو آخر الأديان المنزّلة وخاتمتها أعظم دين بأحكامه وأعماله وما جاء فيه من أوامر ونواهي وفضائل وأجور مضاعفة ، وهذا فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء .

والآية التي ختم بها المصنف رحمه الله فضل الإسلام يليها قول الله ﷻ : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢٩] ، فالفضل بيد الله تبارك وتعالى والله ﷻ يؤتي الفضل من يشاء ؛ فالأمور بتدبيره ﷻ ، وهو الذي يحكم بين العباد ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠] ، فالفضل فضله ﷻ ، ولهذا خص هذا الدين العظيم دين الإسلام بأن جعله متميزاً عن غيره من الأديان المنزّلة بأحكامه ، وأجوره المضاعفة ، وفضائله العظيمة ، وخيراته العميمة .

وفُضِّل هذا الدين بالقرآن الكريم الذي هو أعظم كتابٍ أنزل الله تبارك وتعالى على أعظم رسول ﷺ ؛ ولهذا فإن هذا الفضل الذي ناله أهل الإسلام بهذا الدين الذي خُتمت به الرسالات المنزّلة والأديان المنزّلة يرجع إلى فضل الكتاب الذي نُزّل عليهم ؛ وهو القرآن الكريم أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى . ولهذا فإن الإمام البخاري في كتابه الصحيح أورد هذا الحديث في فصل عنوانه : «فضائل القرآن» ، والقرآن ليس له ذكر في هذا الحديث ، والإمام البخاري رحمه الله أورد الحديث في فضائل القرآن !! ونبّه أهل العلم في شرح الحديث إلى أن صِلة الحديث بالترجمة : من جهة أن فضل هذا الإسلام وفضل هذا الدين الذي أنزله الله تبارك وتعالى يرجع إلى فضل القرآن الذي أنزله الله ﷻ على أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولهذا جاء في هذا القرآن الكريم من الفضائل والخصائص والميزات ما لم يأت في كتاب آخر ، ولهذا جاء في حديث صحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أنزل عليّ سورة لم يأتِ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها فاتحة الكتاب)) فهذه فضائل .

وجاءه ملَك يبشره بهذه السورة العظيمة كما جاء في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ – أي جبريل- فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ

فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ – جبريل – هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ – ثم جاء هذا الملك الذي نزل إلى الأرض أول مرة من ذاك الباب الذي فُتح من السماء لأول مرة وجاء إلى النبي ﷺ – فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ ؛ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)) . فهذه فضائل وخصائص وميزات خص الله بها كتابه العظيم القران الكريم الذي خَتم به الكتب المنزلة .

وجاءت الأجور مضاعفة تضعيفاً لم تكن عليه في الأديان التي قبلنا التي أنزلها الله ﷻ ، وجاءت الأمور فيها من التيسير والتخفيف ما لم يكن أيضا في الأديان التي قبلنا ، وفي الدعاء في القران الكريم في الآيات التي في خواتيم سورة البقرة وقد أوتيها النبي عليه الصلاة والسلام ولم يؤتها نبي قبله يقول الله ﷻ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ؛ هذا من الخصائص والفضائل التي منَّ الله ﷻ على أمة محمد ﷺ بها.

كان بعض من قبلنا توبته لا تُقبل منه إلا أن يقتل نفسه توبةً إلى الله ﷻ ، وحُمِّلوا من الأمور أموراً خُففت عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ورُفعت عنهم منًّا من الله ﷻ وفضلا ، ولهذا قال ﷻ في أوصاف هذا النبي: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف:١٥٧] ، هذا كله من فضل الله تبارك وتعالى بهذا الدين الإسلامي ؛ الدين العظيم الذي بعث الله ﷻ به رسوله ونبيه محمداً عليه الصلاة والسلام .

ومما تميز به هذا الدين – دين الإسلام – خاتمة الأديان المنزلة : أن الأجور فيه مضاعفة والعمل فيه قليل ؛ الصلاة التي أُمرنا بها مخففة عن خمسين صلاة ، ولما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء وكان يتردد بين رب العالمين وموسى عليه السلام ففُرضت الصلاة أول ما فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل بها عليه الصلاة والسلام مستجيباً ، فلقيه موسى عليه السلام وقال : إن أمتك لا تطيق ذلك فسأل الله التخفيف ، وأخذ عليه الصلاة والسلام في سؤال التخفيف، وكلما نزل بتخفيف آخر قال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تطيق ذلك فخُفِّفت الصلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، فهي خمس في العمل وخمسون في الأجر والثواب . فهذا من تخفيف الله ومنّه ﷻ على هذه الأمة أمة الإسلام ، أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فالعمل الذي طُلب من أهل الإسلام قليل والأجور التي أثيبوا بها كثيرة جدا ، والأديان التي قبلنا العمل أكثر والأجر عليه أقل، دون أن يظلم ﷻ أهل تلك الأديان ، لكنه تفضل على أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – بأجور مضاعفة ، ولهذا في الحديث الذي سيأتي معنا الآن شرحه وبيان معناه لما غضبت اليهود والنصارى قال رب العالمين: ((**هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ ؟ قَالُوا لَا ،قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فالأمم التي قبلنا لم يُنقصوا شيئاً من أجورهم ، ولكن الله تبارك وتعالى خص أمة الإسلام بأجور

مضاعفة لم تكن للأمم التي قبلنا . فلله ﷻ الحمد أولاً وأخراً، وله تبارك وتعالى الشكر ظاهراً وباطناً على هذه المنة العظيمة التي نسأله ﷻ أن يوزعنا شكرها وتحقيق القيام بهذا الدين على الوجه الذي يرضيه عنا .

قال : ((**وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ**))؛ أهل الكتابين المراد بهم : اليهود والنصارى ؛ اليهود الكتاب الذي أنزل عليهم التوراة ، والنصارى الكتاب الذي أنزل عليهم الإنجيل ، فهم أهل كتابين أي لكل منهما كتاب؛ اليهود كتابهم التوراة ، والنصارى كتابهم الإنجيل .

ونبينا عليه الصلاة والسلام يضرب هنا مثلاً لحال هذه الأمة مقارنةً بحال اليهود والنصارى في الأجور والثواب والجزاء على الأعمال ، ومحصَّلة هذا المثل : بيان أن الأجر لأمة الإسلام أجراً مضاعفاً وزائداً على الأجور التي كانت لمن قبلنا ، والعمل الذي لأمة الإسلام أقل من عملهم ؛ فالعمل أقل والأجر أكثر ، وأولئك كان العمل عندهم أكثر والأجر أقل ؛ دون أن يُنقصوا شيئا ، ولكنه تفضّل تبارك وتعالى على أمة الإسلام بالتضعيف في الأجور والثواب . وهذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام ليوضح هذا الأمر ، وهو الأجر على العمل لأمة الإسلام مقارناً بالأجر على العمل لليهود والنصارى أهل الكتابين .

والأمثال لها شأن في توضيح الأمور وتبيينها وجعْل الأمر المعنوي بمنزلة الأمر المحسوس المعايَن المشاهَد ؛ فالأمثال يُقصد بها توضيح المعاني وتجليتها بحيث ترى الأمر المعنوي أمامك شيئاً محسوساً بالمثال الذي ضُرب له ، ولهذا كثرت الأمثال في القران ، ففي القرآن ما يزيد على الأربعين مثل ، وكثرت الأمثال في السنة حتى أنها لكثرتها بعض العلماء أفردوها بالتصنيف ، أفرد غير واحد من العلماء في الأمثال ؛ أمثال السنة كذلك أمثال القران في كتب. ففيها توضيح لحقائق الدين وأصول الإيمان وفضائل الدين . والمثل يكون به الأمر المعنوي بمثابة ومنزلة الأمر المحسوس.

فالآن في هذا الحديث سيبين النبي عليه الصلاة والسلام الأجر الذي لأمة الإسلام مقارناً بالأجر الذي لأهل الكتابين ؛ مع كثرة العمل عندهم وقلة العمل عند أمة الإسلام !! واستمع إلى هذا المثل :

قال : ((**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ**)) أي أستأجر عمّالاً يعملون عنده بأجر وبمقابل، وهؤلاء الأجراء كما هو في الحديث لهم ثلاثة أوقات، ((**فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ**)) من غدوة : من الفجر ، إلى نصف النهار : إلى صلاة الظهر أو قريباً منها ، وهذا وقت طويل ((**مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ ؟**)) وقت العمل طويل والأجر عليه قيراط واحد . وقيل في القيراط : إنه من أجزاء الدينار .

((**عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ**)) يعني في هذا الوقت من غدوة إلى نصف النهار والأجرة قيراط .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟**)) وهذا وقتٌ طويل إلا أنه أقصر من الوقت الذي قبله ، فالوقت الذي من غدوة إلى نصف النهار أطول من الوقت الذي من نصف النهار إلى صلاة العصر ((**فَعَمِلَتْ النَّصَارَى**)) .

((**ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟**)) من صلاة العصر إلى غروب الشمس هذا الوقت أقل من الوقت الذي هو من غدوة إلى نصف النهار ،ومن الوقت الذي هو من نصف النهار إلى العصر ، فالوقت أقل والأجر مضاعف ؛ أولئك الوقت أطول وأمة الإسلام الوقت أقل ، وأولئك الأجر قيراط وأمة الإسلام الأجر قيراطان ؛ يعني ضعف الذي يؤتاه أولئك ، يعني الأجر الذي يؤتاه أولئك مدبولاً ، القيراط معه قيراط آخر .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) يعني أنتم يا أمة الإسلام هؤلاء الذين عملهم من العصر إلى غروب الشمس وأجرهم قيراطان ، مشيراً عليه السلام بهذا المثل – وعرفنا أن الأمثلة يؤتى بها للتوضيح والبيان ؛ إذ ليس وقت العمل لأمة الإسلام محصوراً في هذا الوقت ، ولا أيضا وقت العمل للنصارى محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ، ولا وقت العمل لليهود محصوراً في الوقت المشار إليه في الحديث ؛ وإنما هذا مثال للتوضيح والبيان – فقال ((**فَأَنْتُمْ هُمْ**)) أي أنتم الأمة التي حُصت ومُيّزت بعمل أقل وأجر مضاعف ، فهذه فضيلة لأمة الإسلام دل عليها هذا الحديث ؛ أن عملها أقل وأجرها مضاعف على الأمم التي قبلنا .

((**فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً !!**)) ؛ العمل الذي عملناه أكثر والأجر الذي أوتيناه أقل !!

((**قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟**)) ؛ يعني هل الأجور التي لكم نُقِص منها شيء أم أخذتموها وافية ؟ والجواب أنهم أخذوا أجورهم وافية لا نقص فيها .

((**قَالُوا لَا**)) يعني لم نُنقص شيئا من أجورنا .

((**قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**)) فإذا أعطى أولئك أجورهم وافية لم يظلمهم ، وإذا خص أمة الإسلام بمزيد أجر ومضاعفة ثواب فهذا فضله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والله سبحانه وتعالى قال في الآية التي مرت معنا مختومةً بها سورة الحديد: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد:٢٩] فهذا من فضل الله .

والواجب على أمة الإسلام أن يستشعروا هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة التي منّ بها عليهم ربهم سبحانه وتعالى ، وأن يذكروا منة الله تبارك وتعالى عليهم بالإسلام فإنها أعظم المنن ، ورب العالمين سبحانه وتعالى يحب من أمة الإسلام أن يذكروا هذه النعمة ، بل جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ

عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ ؟» يعني لماذا هذا الجلوس ما المقصد منه ؟ قَالُوا : «جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا» يعني نذكر منة الله علينا بالإسلام والهداية لهذا الدين والنعمة التي أنعم الله علينا بها بهذا الدين ، وإنقاذ الله تبارك وتعالى لنا من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ، فجلسوا في المسجد يذكرون نعمة الإسلام . قال رسول الله ﷺ : ((آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)) يستحلفهم بالله ؛ آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ يعني ما جلستم إلا لهذا الأمر لا لأمر آخر ؟ قَالُوا : «وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ» والله ما جلسنا إلا لتذكر هذا الأمر ومذاكرة هذا الأمر ، فقال ﷺ ((أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ)) يعني لم أطلب منكم الحلف لأنني أتهمكم على الكذب ، ليس هذا الغرض وليس هذا السبب ؛ إذًا ما هو السبب؟ قال ((وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ)).

فهذا الحديث العظيم وهو في صحيح مسلم يفيد أن الله ﷻ يحب من عباده أن يجلسوا لتعلّم الإسلام وفضائل الإسلام ومكانة الإسلام ونعمة الله ﷻ على عباده بالإسلام ؛ ولهذا جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام يخبره بأن الله يباهي ملائكته بهؤلاء الذين جلسوا في المسجد لمذاكرة الإسلام وفضائل الإسلام ومنة الله ﷻ عليهم بالإسلام . وهذا من فضله تبارك وتعالى على عباده وعظيم منّه عليهم ؛ مع أنه سبحانه غني عن العباد وغني عن جلوسهم لطاعته وذكره وعبادته ؛ فهو ﷻ لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ؛ فمن الخير للمسلم أن يتذكر نعمة الله تبارك وتعالى عليه بالإسلام ومنة الله عليه بهذا الدين ، وأن يحرص على تحقيق شكر هذه النعمة ؛ فشكر الله على الإسلام: أن تعمل بالإسلام ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ/١٣] ، وأن تحرص على تعلّم الإسلام ومعرفته ومعرفة أركانه وواجباته ومعرفة فضائله ، والنبي عليه الصلاة والسلام شرح الإسلام وبيّنه ووضحه ؛ فتُقبل على سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ تتعلم هذا الدين العظيم وتجاهد نفسك على القيام به كما أمرك الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه أيضا عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ؛ فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ؛ حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ ((**أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا**)) ؛ أضل عن الجمعة من كان قبلنا ومنّ الله ﷻ على أمة الإسلام بمعرفة هذا اليوم ، ومعرفة قدره ، ومعرفة عظيم الثواب الذي أعده الله تبارك وتعالى لعباده في هذا اليوم العظيم .

ويوم الجمعة له خصائص عجيبة ومميّزات عظيمة وفضائل كبيرة ، وقد أطال في عدِّها وبيانها وتفصيلها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» في المجلد الأول منه ؛ فقد تكلم كلاماً بديعاً وعظيماً في خصائص وفضائل يوم الجمعة ، وقد عدَّد من خصائصه وفضائله ما يزيد على الثلاثين ، مما يبين مكانة هذا اليوم وعظيم فضل الله ﷻ على عباده به ، فهذا اليوم العظيم المبارك الذي هو خير أيام الأسبوع وأفضلها أضل الله ﷻ عنه –كما جاء في الحديث – من كان قبلنا وهدى أمة الإسلام إليه .

قال: ((**فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ**)) ؛ فهذه منة الله ﷻ أن هدى أمة الإسلام لهذا اليوم العظيم وعرّفهم بفضائله وخصائصه ومميّزاته ، ولهذا فإن ليوم الجمعة عند أهل الإسلام شأن ، وله مكانه ، وفيه فريضة عظيمة دعا ﷻ إليها أمة الإسلام في كتابه في سورة الجمعة ؛ قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[الجمعة:٩] دعاهم إلى هذه الفريضة العظيمة التي في يوم الجمعة ؛ فيجتمع الناس ويغدون ويذهبون إلى المسجد في هذا اليوم المبارك وأجورهم وثوابهم عند الله ﷻ في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ؛ فمن جاء في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ، ومن جاء في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن جاء في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا ، ومن جاء في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومن جاء في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، أجورهم متفاوتة في هذا اليوم بقدر تبكيرهم ودنوهم من الإمام وطمأنينتهم في هذا اليوم ، وحرصهم على سماع الخير والعلم الذي يلقى في هذا اليوم في خطبة الجمعة التي كان لها شأن عظيم عند نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ حيث كان كل جمعة يخطب الناس ، وكان في خطبته كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ، وكان يقول : ((أما بعد ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كلام اللَّهِ ، وخير الْهُدَى هُدَى رسول الله ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)) .

وقد جاء في هذا اليوم وفي حضور هذه الصلاة والتبكير لها أجور عظيمة جداً ، ولا يهولك عظم الأجر عندما تسمع به ولكن تأمل في عظمة المعطي والمانّ ﷻ على أمة الإسلام ، وقد جاء في الحديث: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)) ، وجاء في الحديث: ((مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ فَدَنَا مِنْ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا)) ؛ فهذه فضائل لهذا اليوم العظيم المبارك . وجاء في الحديث أن في يوم الجمعة ساعة تُعرف عند أهل العلم بساعة الإجابة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله ﷻ إلا أعطاه الله ما سأل . وهذا اليوم له فضائل وخصائص عظيمة يحسن مطالعتها في كتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله .

قال: ((**فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ،وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ يبين ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) ؛ نحن الآخِرون لأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام أخر

الأمم ، ورسالة النبي ﷺ خاتمة الرسالات ، وهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ؛ فقال: ((**نَحْنُ الْآخِرُونَ**)) يعني حُتمت بنا الأمم ، ((**وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) لأن أمة الإسلام مقدمة على الأمم التي قبلها ، فهم جاءوا آخِراً ولكنهم يأتون مقدمين يوم القيامة . ولعله ينطبق هنا قول الشاعر:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِك المدَلّلِ تَمْشِي رُوَيْداً وَتَجِيء في الأَوّلِ

أمة الإسلام ؛ عمل قليل وأجر مضاعف ، وتأتي هذه الأمة العظيمة مقدَّمةً على الأمم السابقة ؛ سابقةً عليها بالأجر والثواب والجزاء عند الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وفيه تعليقاً عن النبي ﷺ أنه قال : ((أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)) انتهى .

****

قال ((**وفيه تعليقا عن النبي ﷺ**)) ؛ فيه : أي في صحيح البخاري . والبخاري رحمه الله أورد هذا الحديث في صحيحه معلقا في ترجمة باب ، لأنه ليس على شرطه في الصحيح ، ولكنه خرّجه بإسناده في كتاب الأدب المفرد، وخرّجه غيره من أهل العلم ، وهو حديثٌ حسن الإسناد .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ وهذا الحديث فيه ذِكْر ثلاثة فضائل للإسلام :

الفضيلة الأولى : أنه أحب الأديان إلى الله تبارك وتعالى .

والفضيلة الثانية : في قوله ((**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**)) ؛ فهو دين حنيف ودين سمح .

و«**الحنيفية**»: هي البعد عن الشرك ولإقبال على التوحيد ،كما قال ﷻ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠] ، فالحنيف : هو المائل عن الشرك إلى التوحيد . فدين الإسلام هو دينٌ حنيف ليس فيه خرافات ، وليس فيه ضلالات ، وليس فيه ترّهات وأوهام؛ وإنما هو دينٌ قائم على صحة المعتقد وسلامة الدين وحُسن الصلة برب العالمين بالإقبال عليه ﷻ وحده خضوعاً وتذللاً ورغَباً ورهباً ؛ فهو دينٌ مائل عن الضلالات ، متجافٍ عن الأباطيل والخزعبلات ، قائم على الحق والهدى والإقبال على الله تبارك وتعالى بصدق وإخلاص .

و «السمحة» : هذه أيضا من فضائل هذا الدين العظيمة أنه دين السماحة ودين اليسر ، وما جعل الله ﷻ في هذا الدين على العباد من حرج ؛ أعماله أعمال ميسَّرة لا عنَت فيها ولا مشقة ، وقد قال ﷺ في حديث صحيح ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا)) ؛ وصف عليه الصلاة والسلام هذا الدين بأنه يسر ؛ يُسر في عقائده لأن عقائده عقائد صحيحة واضحة بيّنة ، ليست عقائد قائمة على الخرافة

أو على الضلال ، بل هي عقائد سليمة توافق الفطر وتقبلها العقول السليمة ، وأعماله أعمال ميسرة في فرائضه وواجباته ومستحباته ((صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)) أمور ميسرة يسرها رب العالمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ، ((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))، فهو دين السماحة ودين يسر وليس فيه مشقة وليس فيه عنت، قد قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فهو دين سمح ، دين ميسر ، دين سهل فيه هذه الصفات العظيمة التي تدل على كماله ورفعته .

قال رحمه الله :

وعن أبي بن كعب ﷺ قال : «عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشيت الله فتمسه النار ، وليس من عبدٍ على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبِس ورقها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها ، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة» .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر العظيم عن أبيّ بن كعب وفيه توضيح لحقيقة الإسلام ، وفيه أيضا ذِكر فضائل عظيمة جداً لمن يحافظ على الإسلام كما أمِر بذلك ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] ، فثمة فضائل عظيمة جداً ينالها من حافظ على الإسلام كما أمره الله ﷻ بالمحافظة عليه ، بخلاف حال كثير من الناس الذين يعملون أعمالاً يظنونها من الإسلام ، ويظنونها من دين الله ، ويظنونها من شرعه ﷻ وهي بخلاف ذلك ، ولهذا جاء في حديثٍ صحيحٍ عن النبي ﷺ رواه البخاري ومسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

فأبي بن كعب رضي الله عنه وأرضاه في هذا الأثر العظيم يبين لنا حقيقة الإسلام وما يترتب على قيام العبد بهذه الحقيقة كما أمِر وعلى الوجه الذي أُمر به ؛ فيقول : ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ؛ السبيل والسنة هو الإسلام ، لأن الإسلام هو سبيل الله الذي دعا عباده إلى سلوكه على وفق السنة وما جاء به رسول الله ﷺ ، ولعل مما يبين لنا هذا المعنى ذلك المثل العظيم الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لبيان الدين وبيان الإسلام وحقيقة الإسلام فقال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ)) يعني جداران وتأمل المثل جيداً ؛ صراط مستقيم ، ومبني على جنبتي الصراط المستقيم سوران : أي جداران ((فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ)) وأنت تمشي

مع هذا الصراط على يمينك جدار وعلى يسارك جدار ، وفي الجدار أبواب تمر على يمينك وعلى يسارك، ((وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ)) يعني الأبواب ليس لها أقفال وإنما كل باب عليه ستارة ((وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا)) يعني انتبه ولا تلف عنه لا يمين ولا شمال ، ((وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)) تدخل ، لا تفتح باب الحرام على نفسك ، لأنك إن فتحت باب الحرام على نفسك دخلت في الحرام ، فاجعل الباب الذي بينك وبين الحرام مغلق لا تفتحه فإنك أن فتحه تلجه ، ((وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى)) لأن لك في طريق الإسلام حدود لا تخرج عنها ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] فلك حدود لا تتعداها ، ((وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ)) هذه أبواب تُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إلى حيث الحرام . ولاحظ هنا ملاحظة عجيبة: أن الطريق الحرام ما يحتاج من داخله إلى وقت لأن عليه باب والباب عليه ستارة ، ومن أراد أن يدخل من بابٍ عليه ستارة هل يحتاج إلى وقت عند الدخول ؟ هل يحتاج إلى أن يقف ويعالج يد الباب ليفتح الباب أو يفتح القفل ثم يفتح ويدخل ؟! الباب الذي عليه ستاره وأنت على هيئتك تمشي تلمس الستارة بكتفك وإذا بك داخل بدون ما يأخذ منك وقتاً أو جهداً، ((وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ في قلب كل مسلم)) ولهذا سبحان الله !! المسلم الذي هو ماضٍ على الطريق المستقيم إذا بدأت نفسه تدخل في معصية يجد في صدره حزة ووخزة ؛ هذا واعظ الله ﷻ في قلب كل مسلم ، لكن هذا الواعظ يتبلد عند الإنسان إذا تعمق في الحرام ومضى فيه فيصبح –والعياذ بالله– يمضي في الحرام ولا يحس ، لأنه تعطل عنده هذا الإحساس وتبلد عنده هذا الواعظ . فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للإسلام .

إذاً قول أبيّ ((**عليكم بالسبيل**)) أي عليكم بهذا الصراط الذي هو الإسلام .

((**والسنة**)) أي أسلكوا هذا الصراط المستقيم على ضوء السنة التي بُعث بها نبينا عليه الصلاة والسلام . فليس لك أن تعمل متقربا إلى الله ﷻ بما شئت من الأعمال قائلاً أريد أن أسلك السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى بأعمال أخترعها ، ليس لك ذلك ؛ ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه ، فعليك أن تسلك هذا السبيل على وفق سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . قال: ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) ثم انظر الأجر .

((**فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار**)) لا تمسه النار.

انتبه لهذا القيد العجيب، القيد العظيم الذي نبه عليه أبيّ ﷺ ، قال: ((**ما من عبد على سبيلٍ وسنة**)) لكن الذي على ضلالة وبدعة وعلى هوىً وخرافة ؛ لو فاضت عيناه بالدموع فهو على خطر عظيم من هذه البدعة

التي هو عليها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤] هو على خطر عظيم .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد –وهذا تنبيه عظيم مبارك من أبي رضي الله عنه– ينبغي أن يكون العبد في خشوعه وبكائه وخشيته وإقباله على الله على السنة ، لا أن يجلس الإنسان خاشعاً باكياً ولكنه على ضلالة وبدعة ، البدعة لا توصلك إلى الله ولا تقربك من الله ، البدعة تبعد الإنسان عن الله ولا تقربه من الله، ولهذا لابد مع خشية الإنسان وخشوعه وبكائه ورقة قلبه من إقبال على الله بسنة النبي ﷺ ، أرأيتم لو أن رجلاً جلس عند قبر خاشعاً باكياً متذللاً دموعه تنهمر لا تقف ويبكي بكاءً متواصلاً وهو على هذه الحال قائماً وعاكفاً عند القبر مناجياً صاحب القبر طالباً متوسلا ؛ هل هذا العمل والبكاء والخشوع يدنيه من الله أو يبعده من الله ﷻ؟ يبعده من الله ما يقربه منه ، لا يقرب من الله ﷻ إلا العمل الصالح الخالص ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] . ولهذا نبه هذا الصحابي الجليل على هذا القيد المهم ؛ الخشوع ورقة القلب والدموع أمر طيب لكن على سبيل وسنه . أما إذا كانت هذه الدموع وذاك الخشوع على غير سبيل وسنه فالله لا يقبل من العمل إلا الخالص الموافق للسنة . ولهذا قال العلماء : لا يُقبل العمل إلا بشرطين؛ الشرط الأول : الإخلاص ، والشرط الثاني : المتابعة . ولعل في قول أبي بن كعب ((**عليكم بالسبيل والسنة**)) إشارة إلى هذين الشرطين ؛ فالسبيل : هو الإسلام ، وهو الاستسلام لله على وجه الإخلاص ، والسنة: هي الإتباع والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام . والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان بهذا الوصف : خالصاً لله موافقاً لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في قوله ﷻ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] : «أخلصه وأصوبه» ، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : «العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» أي على سنة رسول الله ﷺ .

ثم قال أبيّ : ((**وليس من عبد على سبيلٍ وسنَّة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله**)) لاحظ أيضاً القيد مرة ثانية أعاده؛ ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله ((**إلا كان مثله**)) انظر الثواب ((**كمثل شجرة يبس ورقها**)) يعني جفت وأصبح فيها ورقٌ يابس ((**فبينما هي كذلك إذ أصابتها ريح**)) يعني جاء هواء ((**فتحاتَّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها**)) ؛ هذا مثال .

وهذا المثال الذي ذكره أبيّ جاء ذِكره في السنة ؛ جاء في السنة أَنَّ النبيﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ فَقَالَ: ((إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ

وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)) ، والصحابة يرون الورق يتحات ، فيقول عليه الصلاة والسلام هذا مثل لمن يكثُر ذكره لله تسبيحاً وتحميداً وتهليلا . ولاحظ هنا ؛ ذكر الله بما شرع يحصل به تحات الذنوب ، أما ذكر الله بالبدع والأهواء والخرافات والطقوس التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان هذه لا يتحات بها الذنوب ؛ بل يُخشى على العبد فيها من الإثم ومن العقوبة ، فالأعمال التي يتحات بها الذنوب كما يتحات ورق الأشجار هو التقرب إلى الله بالأذكار المشروعة والعبادات التي أمر الله تبارك وتعالى عباده بها .

ثم ختم هذا الأثر أبيّ بقوله: ((**وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة**)) ؛ الاقتصاد : هو التوسط والاعتدال . وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)) القصد: هو التوسط ؛ لا غلو ولا جفاء ، لا إفراط ولا تفريط ، لا تزيد عن المأمور ولا تنقص عنه ، التوسط هو أن تلزم السبيل والسنة ، حتى وإن قلّ العمل فالعبرة ليست بالكم ولكنها بالكيف ؛ أن يكون العمل موافق للسنة، فأن تقتصد في عمل على سبيلٍ وسنة خيرٌ لك من أن تجتهد في عمل ليس على سبيل ولا على سنة .

اضرب لك مثالًا : لو أنك صليت في ليلة ركعتين بعد صلاة العشاء أو قرب صلاة الفجر وختمتها بركعة الوتر واستغفرت الله ﷻ من ذنبك ، هذا الذي كان منك هذه الليلة ، هذا العمل اسمه «اقتصاد في سنة» ، لأنه عمل مسنون مأمور به ، عليه عند الله تبارك وتعالى ثواب جزيل . ((**اقتصاد في سنة خير من اجتهاد بدعة**)) ، هذا خير لك من أن تحيي الليلة كاملة في بدعة ما أنزل الله بها من سلطان مثل بدعة المولد أو بدعة الاحتفال بليلة الإسراء أو غير ذلك ، لو جلست تلك الليلة مَن صلى ركعتين بدون هذه الأعمال التي ما شرعها الله خيرٌ منك ؛ لأن الله شرع لك في الليل صلاة الليل ، وشرع لك في الليل أن تستغفر ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] ، فأن تعمل في الليل الأعمال التي شُرعت ولو كان العمل الذي قمت به قليل خير لك من أن تجتهد ليلة كاملة في عمل ليس على سبيل ولا سنة .

وهذا مثال قس عليه بقية الأمور والأعمال ، وهي قاعدة عظيمة احفظها من هذا الصحابي الجليل ، ليست هذه القاعدة من أي أحد ؛ وإنما هي من صحابي عرف الحق وعرف الهدى ولزم النبي عليه الصلاة والسلام أعطاك هذه القاعدة الذهبية : «**اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة**»؛ فإذا كان العمل ليس عليه دليل من السنة دعك منه ابتعد عنه وإن حثك عليه الناس وإن رغّبوك فيه ، ابتعد عنه ، وعليك بالعمل الذي هو على السنة ولو كان قليلا ، فإذا كنت مبتلى في بلدك بمثل هذه الاحتفالات ؛ إذا احتفل الناس توجه إلى بيتك وصلى ما كتب لك الله من صلاة وحافظ على ما تصلي عليه في لياليك واستغفر الله ونام فأنت على خير ، لأن اقتصادك هذا وعملك هذا على سنة ، هو في عمل صالح أمرَك الله به ورغّبك النبي عليه الصلاة والسلام وجاءت فيه أحاديث كثيرة جداً عن النبي ﷺ ، وألّف العلماء فيه مؤلفات كثيرة في فضل قيام الليل وثواب قيام الليل ، فعليك بهذا العمل الصالح الذي فيه فضائل ، ودعك من هذه الأعمال التي يقوم بها الناس ما

أنزل الله ﷻ بها من سلطان ، مثل اجتماعهم على إنشاد القصائد واجتماعهم على الأراجيز وربما اجتماع بعضهم على الطبول وعلى أعمال مثل هذه الأعمال ويعدّونها من صالح عملهم ، وهي ليست من السنة ، ومن يقول إنها من السنة يأتي بالدليل ، السنة بيّنة ومحفوظة وكتبها معروفة ومشهورة وليس فيها دعوة إلى مثل هذه الأعمال .

فالواجب على المسلمين عمومًا أن يتقوا الله تبارك وتعالى وأن يحافظوا على دينهم على هذا النهج المبارك الذي رسمه النبي عليه الصلاة والسلام وسار عليه الصحابة من بعده ، ولا يفتح الإنسان لنفسه في هذا المقام مبررات ، لا تُقبل منك المبررات مهما كانت إذا لم يقم على عملك دليل من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فلنحفظ هذه الوصية المباركة «عليكم بالسبيل والسنة» ، ثم ختم هذه الوصية بقوله : «**وإن اقتصادًا في سبيل وسنه خير من اجتهاد في اختلاف سبيل وسنة**» .

وأتوجه إلى من بيده أزمة الأمور ومن بيده مقاليد السموات والأرض ، أتوجه إلى الهادي ﷻ أن يجعلنا وإياكم كذلك ، نسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا وإياكم على السبيل والسنة ، وأن يعيذنا جميعا من الضلالة والبدعة ، اللهم اجعلنا أجمعين على السبيل والسنة وأبعدنا يا الله عن الضلالة والبدعة.

قال رحمه الله :

وعن أبي الدر داء ﷺ قال : «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم ، ولمثقال ذرة مع تقوى ويقين أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين» .

****

لا إله إلا الله !! تأمل هذا الأثر العجيب عن الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه ، وتأمل هذا الأثر جيدا ينفعك الله ﷻ به ، حتى قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد عن هذا الأثر : «وهذا من جواهر الكلام ، وأدلِّه على فقه الصحابة وتقدّمهم على من بعدهم في كل خير»؛ كلام نفيس جداً ، كلام جواهر ، كلام كما يقولون يُكتب بماء الذهب ، من أنفس الكلام يقوله هذا الصحابي الجليل فتأمله .

يقول: ((**يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) نوم وإفطار ؛ نوم في الليل وإفطار في النهار ، «**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**» ؛ يعني أن يكون الإنسان ينام ويفطر ولكنه ماضي على السنة على الجادة على هدي النبي ﷺ مجانِب للبدع والضلالات ، هذا خير من أن يعمل أعمالاً مثل الجبال ليست على سنَّة ، لأن تلك الأعمال التي مثل الجبال على غير السنة لا يقبلها الله ، لأن النبي ﷺ جزَم قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، طيب هل أيضا الأمر كفاف لا له ولا عليه ؟! ترد أعماله ولا له ولا عليه! أم أنه يأثم بتلك البدع والإعراض عن سنة النبي عليه الصلاة والسلام ؟! ولهذا يقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس**)) ؛ يعني كون الإنسان ينام في الليل أفضل وخير من شخص يحيي الليل من أوله إلى آخره على غير سنة ، هذا يصلي العشاء وينام من أول الليل وإذا أذّن الفجر قام وصلى وقد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ

فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ)) ، فهذا صلى العشاء مع جماعة وصلى الفجر مع جماعة ، والآخر أحيا الليل في بدع وخرافات وربما لم يصِل وقت صلاة الفجر إلا وهو متعب ومكدود ونام عن صلاة الفجر ، فيقول أبو الدرداء : ((**ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم**)) ؛ أيضا يفطرون وصيامهم قليل لكنهم لا يمارسون أعمالاً مبتدعة وأموراً محدثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان .

قال: ((**كيف يُغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) ؛ الحمقى : يشير بذلك ﷺ إلى من يسهر على بدع وأيضا يصوم على ضلالة ، ليس كل صوم يُقبل ، أليس قال النبي عليه الصلاة والسلام عن أولئك النفر الذين أتوا إلى بيت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالّوها ؛ فقال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا أقوم ولا أرقد ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فسمع النبي ﷺ بذلك فقال : ((لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، هؤلاء عندهم صيام وعندهم قيام ولكنها على غير السنة ، وفي أمثالهم قال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، ولهذا قال : ((**يغبنون سهر الحمقى وصومهم**)) الحمقى : الذي يكون سهره على غير سنة ، وصيامه على غير سنة ، وعبادته على غير سنة ؛ هذا نوع من الحماقة لأنه تضييع الأوقات وإهدار للجهود من غير طائل ، بل يأتي وهو يأثم بإعراضه عن السنة وإقباله على البدع والخرافات والضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال ﷺ مبيّناً : ((**ولمثقال ذرة**)) يعني عمل قليل يسير جداً ((**ولمثقال ذرة من بِرّ مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين**)) ؛ قارن! مثقال ذرة ويقابلها جبال ، والذرة أفضل من الجبال ، لماذا؟ لأن هذه الذرة وهي العمل القليل كانت من بِر ، والبر: هو الأمر الذي شرعه الله ﷻ مع تقوى ويقين . لاحظ صفات العمل الذي هو قليل ولكنه مقبول وأجره مضاعف : أن يكون من بر ؛ أي : من أمور البر التي شرعها الله ﷻ وأمر عباده بها ، وأقرأ على سبيل المثال في ذلك آية البر في سورة البقرة قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة/١٧٧] .

فأن يكون العمل من بِر : أي من عملٍ بَرٍّ مشروعٍ أمَر الله به ، وأن يكون مع تقوى ويقين : تقوى لله ﷻ بأن يقع منك خالصاً لا تبتغي به إلا وجه الله ، ويقين بثواب الله وجزاءه وما أعدّه الله ﷻ لعباده المتقين ((**أعظم وأفضل وأرجح**)) وكل واحدة من هذه الكلمات الثلاث تُغني عن الأخرى ، لكن من باب التأكيد ، لو قال أعظم كانت كافية ؛ لكنه أراد أن يؤكد هذه الحقيقة قال: ((**أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من**

المغترين)) ؛ ويشير بالمغترين الذين تمضي أوقاتهم في ممارسات مُحْدثة وأعمال مبتدعة لم يكن عليها هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فكرر رعاك الله تأمل هذا الأثر وتأمل بدايته العجيبة ((**يا حبذا**)) يقول أبو الدرداء ، والذي كان عليه أبو الدرداء والصحابة الأخيار ومن اتبعهم بإحسان هو الاجتهاد في التقرب إلى الله ﷻ بالسنن والأعمال المشروعة التي أمر الله ﷻ بها عباده ودعوة الناس إلى ذلك .

ونختم بسؤال الله تبارك وتعالى التوفيق لرضاه والإعانة على طاعته وهداه ، وأن يرزقنا إتباع سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب وجوب الدخول في الإسلام وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، **وقوله تعالى:** ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، **وقول الله تعالى :** ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام/١٥٣] **الآية. قال مجاهد:** «**السبل: البدع والشبهات**» .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**باب وجوب الدخول في الإسلام**)) ؛ هذا بابٌ عظيم ينبغي على كل مسلم أن يتنبه له وأن يعرِف أمر الله ﷻ له بذلك ؛ الدخول في الإسلام ، وذلك بالتزامه بالإسلام ؛ أحكام الإسلام ، وشرائع الإسلام ، وما في الإسلام من أوامر ونواهي ؛ فيكون منقاداً مستسلماً متَّبِعاً مطيعاً ، فهذا أمرٌ مطلوب ، والله ﷻ أمَر أهل الإيمان بذلك ، أمرهم بالدخول في الإسلام وذلك بالتزام أحكامه وتفاصيله وشرائعه كما في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:٢١٠] والمراد : ﴿فِي السِّلْمِ﴾ أي الإسلام ؛ شرائعه وأحكامه وأوامره ونواهيه وتفاصيله ﴿كَافَّةً﴾ : لا تتركوا منه شيئا ،

جاهدوا أنفسكم على التزام أحكامه ، والتقيد به ، والانقياد التام لما جاء في الإسلام من أوامر ونواهي وفرائض وواجبات .

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ : أي لا تتركوا منه شيئا ، بل حافظوا على الإسلام واستمسكوا به ، ولا يمكن أن يدخل أحدٌ في السِّلم كافة إلا إذا تخلى عن هوى نفسه ، فالنفس تبحث عن حظوظٍ وعن أمورٍ وعن شهواتٍ قد تصرِف العبد عن هذا الدخول وعن هذه المحافظة على الإسلام ، وأعظم ما يصرف عن هذا الدخول الشيطان الرجيم – أعاذنا الله منه – ولهذا قال تبارك وتعالى في هذا السياق : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ لأن الشيطان يريد نقل الإنسان عن الإسلام عبر طرقٍ يأخذ الإنسان فيها بخطواتٍ تدريجية بالترك والتخلي عن الإسلام ، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ؛ فأفاد هذا السياق العظيم لمن أراد الدخول في الإسلام –شرائعه وتفاصيله– أن يتخلى عن هواه وأن يحذر أشد الحذر من الشيطان الرجيم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ ليست المسألة أمرًا اختياري تأخذ وتدَع حسب هوى النفس ورغبتها ، فما راق للنفس أخذه ، وما لم يرُق لها تركه ، ليس هكذا شأن المسلم ؛ بل المسلم مستسلمٌ لله منقادٌ لله إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى ، فإذا كان يعصي في المأمور ويرتكب المحظور فهذا من نقص إسلامه ولم يتحقق له إسلامه ، وهو مطلوبٌ منه أن يجاهد نفسه على الدخول في الإسلام كافة بالمحافظة عليه والعناية به والبُعد عن كل أمر يُنقِصه أو يُخِلُّ به .

وبهذا يُعلم أن انشغال الإنسان بغير الإسلام الذي هو شرع الله ودينه حتى ولو كان على وجه التقرب إلى الله ﷻ وإرادة ثوابه لا يُقبل من الإنسان ، فلا يُقبل من الإنسان إلا الإسلام الذي هو شرع الله ودينه ﷻ وما أمَر به عباده ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ وجوب الدخول في الإسلام**)) ؛ أي بالالتزام به كما شرع الله وكما أمر الله وكما بلّغت رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ، فالإسلام هو دين الله ﷻ الذي بلَّغته رسله ، فلا يقبل الله ﷻ ديناً سواه، ولا يقبل عملاً إلا ما جاء من طريق الرسل الذين خُتموا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه.

وأورد نصوصاً تبين مدلول هذه الترجمة ؛ فذكر أولاً قول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ أي غير هذا الدين الذي شرعه الله ﷻ لعباده وأمرهم به وبعث به رسله عليهم صلوات الله وسلامه ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لا يقبل الله تبارك وتعالى ديناً ولا عملاً ولا طاعةً ولا قربةً إلا ما كان إسلاماً بعث به رسله ودعا إليه عباده ، فليس باب العبادة والتقرب إلى الله ﷻ مفتوحاً للإنسان يعبد الله بما شاء ويتقرب

إلى الله بما شاء ؛ بل عبادة الله ﷻ إنما تكون بما أذِن وبما شرع وبما أمر ﷻ عباده به، ولهذا في قوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ تحذير من مخالفة الإسلام والرغبة عنه وعن أعماله وعن أوامره إلى خرافات باطلة أو ضلالات زائفة أو أهواءٍ منحرفة أو تجارب مدّعاة أو نحو ذلك من الأبواب التي صارت منزلقاً لكثير من الناس في التخلي عن الإسلام والدخول في أعمالٍ ليست منه ولم يشرعها ﷻ لعباده .

قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ؛ لاحظ هنا قوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ في هذا السياق ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ : يعني من طلَب لنفسه دينًا وشرعًا وأحكامًا يلتزمها ويحافظ عليها وربما يتقرب إلى الله بها فكل هؤلاء لا يقبل الله ﷻ منهم ؛ إلا إذا كان دينهم هو الإسلام ، لو تقرب الإنسان إلى الله ﷻ الليل والنهار وأطال القيام والعبادة والعمل على غير الإسلام فكل ذلك لا يُقبل ، ولهذا سيذكر المصنف قريباً قول النبي عليه الصلاة والسلام ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ؛ قوله ((فَهُوَ رَدٌّ)) هو بمعنى قوله ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، ((فَهُوَ رَدٌّ)) : أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، فالله ﷻ لا يقبل من العبد إلا ما كان إسلاماً بَعَث الله به رسله وأنزل به كتبه وشرعه لعباده وأذِن لهم به ، أما ما سوى ذلك فلا يقبله الله ﷻ ، قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد وهو عدم القبول ؛ بل أنه يكون خاسراً معاقباً آثماً يلحقه الخزي والعقاب لتركه للإسلام الذي شرعه رب العالمين وأمر ﷻ عباده به قال :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أيضا تأمل هنا قوله ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ ؛ وهذا فيه تنبيه أن أعمال الإسلام التي يقوم بها العبد في هذه الحياة المقصود بها الآخرة وليس المقصود بها الدنيا ، وهذه ملاحظه مهمة ، الصلاة والصيام والحج هذه أعمالٌ للآخرة ولهذا قال الله في آيةٍ أخرى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] ، هذه شروط السعي المشكور عند الله : أن يريد به صاحبه الآخرة ، وأن يسعى لها سعيها.

وقد ذم الله تبارك وتعالى من أراد بعمل الآخرة الدنيا في آيات عديدة في القرآن ؛ كقوله ﷻ في الآية التي قبل هذه الآية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨] ، وقال ﷻ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود:١٥] ، فذم تبارك وتعالى من أراد بعمل الآخرة الدنيا ؛ يصلي لأجل الدنيا ، ويصوم لأجل الدنيا ، ويتصدق لأجل الدنيا ، ولهذا لاحظ قال: ﴿ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةِ﴾ لأن الآخرة هي ميدان الثواب والجزاء على العمل الذي كان في الدنيا ، ولهذا جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه وعن الصحابة أجمعين قال : «ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً ، وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ – يعني للدنيا بنون ؛ لا همّ لهم إلا الدنيا ، وللآخرة بنون همّهم الآخرة – فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ» .

ولهذا فإن من فوائد هذه الآية : أن تكون الآخرة نصب عيني الإنسان في أعماله وفي طاعاته ، وأن يتذكر دائماً أنه سيقف بين يدي الله تبارك وتعالى في يوم الدين ؛ يوم الجزاء والحساب ، فيجازيه ربه ويحاسبه على ما قدّم من الأعمال ، وفي ذلك اليوم تتجلى الأمور وتنكشف الحقائق ويُبعثر ما في الصدور ويجازى الناس على أعمالهم ، فتكون مصيبة الإنسان عظيمة إذا كان قدّم في هذه الحياة الدنيا قربات كثيرة وأعمال عديدة ولكنه يأتي يوم القيامة خاسراً لكون تلك الأعمال وتلك القربات على غير الإسلام ؛ فوجب على العاقل أن يتنبه لهذا الأمر وأن يجاهد نفسه في أن تكون طاعاته وأعماله وقرباته قائمة ومبنية على الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى .

وكل خروجٍ عن الإسلام وعن تعاليمه فهو مردودٌ على صاحبه ، والمصيبة في هذا الباب في كثير من الناس عظيمة؛ إذ إنَّ عدداً منهم تجده يمارس أموراً تُخرج من الإسلام وتنقل الإنسان من حظيرة الدين وهو يظن نفسه متقربًا إلى رب العالمين بأعظم القربات ، ومن أعظم الأمثلة على ذلك : حال من يعكف عند القبور باكياً خاشعاً متذللاً منكسراً طامعاً راجياً يجعل المقبورين وسائط بينه وبين الله ﷻ ، حاله كحال من قال الله ﷻ عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[الزمر : ٣] ، وقوله الله ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾[يونس : ١٨] فيتخذ الوسائط بينه وبين الله ﷻ مندّداً مسوياً عادلاً غير رب العالمين به ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام:١] ، وستكون ندامة هؤلاء عظمى لأن الله عز وجل أخبر عن حال من يسوّون غير الله به في ذلهم وخضوعهم وانكسارهم وخشوعهم وتذللهم ورجائهم ورغبهم ورهبهم ؛ ذكر عن ندامتهم فيما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ، بل بلغ الحال بكثير من الناس أنه في صلاته لا يخشع ولا يذل ولا ينكسر ، وعند المقبورين يخشع ويذل وينكسر ويرغب ويرهب ويرجو ويطمع ، أين حقيقة الإسلام هنا ؟! أين الدين هنا الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده ؟!

ولهذا يجب على الإنسان أن يتأمل هذا الأمر وأن ينتبه له ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، وكذلك من يمضي في عباداته وأعماله على بدع ما أنزل الله بها من سلطان ، وضلالات ليس عليها حجة ولا برهان ؛

متقرباً إلى الله ﷻ به فكل ذلك لا يقبله الله ، وقد أعلن ذلك صريحًا رسول الله ﷺ عندما قال ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

ثم ذكر المصنف رحمه الله بعد هذه الآية آية أخرى في المعنى نفسه؛ وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ؛ وهذه الآية بمعنى الآية التي قبلها. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ؛ فالدين الذي يرضاه الله ويقبله من أهله وأصحابه ويثيب عليه ويشكر صاحبه هو الإسلام الذي شرعه الله ﷻ لعباده وأمرهم به وبعث به رسله وأنزل به كتبه ، هذا هو الدين . وكل دين سوى الإسلام فهو ضلال ؛ مهما وضع له صاحبه من المبررات ومهما التمس له من الأعذار فكل دينٍ سوى الإسلام ضلال ، وكل تقربٍ إلى الله ﷻ بغير إسلام فهو بُعدٌ عن الله وليس تقرب ، وكل سيرٍ إلى الجنة وطلبٍ لها بغير الإسلام هو في الحقيقة بُعد عنها، فكل طريق إلى الجنة مسدود إلا من طريق الإسلام الذي هو دين الله ﷻ الذي بعث به رسله وختمهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أورد في تبيين هذا المعنى والتأكيد عليه قول الله ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ؛ وهذه الآية ساقها المصنف في هذا الموضع ليبين بها أن الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى الذي لا يقبل ديناً سواه هو الصراط المستقيم والسبيل القويم الموصل إلى رضوان الله ﷻ ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالإسلام هو صراط الله المستقيم . ما هو الصراط المستقيم ؟ أحد الصحابة سُئل عن ذلك ، سئل عن الصراط المستقيم ما هو ؟ قال : «هو طريق تركنا رسول الله ﷺ في أوله ونهايته في الجنة» ؛ طريق مستقيم يوصل صاحبه إلى جنات النعيم .

والله ﷻ ذكر الصراط هنا قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ وأمَر عباده ؛ بل أوجب عليهم أن يدعوه دعاءً متكرراً بالهداية إلى هذا الصراط في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، فقوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا دعاء يتكرر منك كل يوم وليلة سبع عشرة مرة في الصلاة المفروضة ، فهو أوجب الدعاء وأعظمه وأهمّه ، بل ليس في الأدعية أعظم من هذه الدعوة ، هي أكمل الأدعية وأعظمها ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ؛ لأن العبد إذا هُدي إلى الصراط المستقيم سعد في دنياه وأخراه ، ونال الفلاح ، وسلِم من الخسران .

قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يقول العلماء رحمهم الله: إن صراط الله المستقيم متصفٌ بصفات ثلاث عظيمة :

١) الصفة الأولى : الاستقامة ؛ طريق مستقيم ليس فيه اعوجاج وليس فيه انحراف وليس فيه التواء ، بل هو موصلٌ إلى الحق بطريق مستقيم غير مائل ولا معوَج . والاستقامة تعني : القرب ؛ لأن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الموصل إلى المقصود بأقرب طريق ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فإذاً من صفاته الاستقامة.

٢) الصفة الثانية : اليُسر ؛ طريقٌ يسير ليس طريقاً وعراً أو صعباً أو شاقاً بل هو طريق سهل ، وقد قال ﷺ : ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ)) ، والله ﷻ قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج:٧٨] فهو دين يسر ، الطريق المستقيم طريق ميسّر ليس معسَّر ، ليس صعباً ، ليس حزْنا ، ليس وعِرا ؛ بل طريق سهلة ميسرة.

٣) الصفة الثالثة : السعة ؛ الصراط المستقيم واسع ، لو دخل الناس من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها في هذا الصراط المستقيم يسعهم ، طريق واسع ليس طريقاً ضيقاً لا يكفي إلا لواحد أو لعشرة أو لعشرين أو لمئة أو لمئتين أو ألف أو ألفين ؛ طريق واسع يسع الناس كلهم من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لو دخلوا كلهم في هذا الصراط لوسعهم .

فإذاً الصراط المستقيم متصف بالاستقامة والسهولة والسعة ، وهو دين الله ﷻ الذي أمر ﷻ عباده به .

وقد بيّن نبينا عليه الصلاة والسلام هذا الصراط بمثل ؛ فكان الصحابة حوله ، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : ((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)) ؛ بمعنى أن الإنسان وهو ماضٍ في طريق الله وفي صراط الله المستقيم سيمُرّ مرات كثيرة وأحايين عديدة على يمينه وعلى شماله على سُبل تُخرج الإنسان من صراط الله المستقيم .

والخروج عن صراط الله المستقيم يكون من أحد طريقين :

١) إما طريق الشبهة التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث البدعة والضلالة .

٢) أو طريق الشهوة التي تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم إلى حيث المحرمات والموبقات .

والشيطان –كما جاء في بعض الآثار في كلام أهل العلم– يشام القلوب ؛ يعني ينظر إلى ميل القلب ؛ إذا وجد القلب ميالاً للشهوات رغّبه فيها وحثّه عليها وزيّنها له ، وإذا وجده منصرفاً عن الشهوات غير مقبلٍ عليها جعله يتشدد في دينه ويغلو في دينه إلى أن يخرج عن الدين بغلو يفضي إلى البدعة وإلى الضلالة وربما إلى الشرك بالله تبارك وتعالى . فيُخرج الإنسان عن الطريق المستقيم إما عن طريق الشبهة بفساد العلم ، أو عن طريق الشهوة بفساد العمل ؛ الشهوة فساد في العمل ، والشبهة فساد في العلم . وضياع الإنسان بفساد علمه أو فساد عمله ، وصلاح الإنسان واستقامته بصلاح علمه وصلاح عمله ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ؛ فالمنعَم عليهم : من صلح فيهم العلم والعمل ، اجتمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح . والمغضوب عليهم : من عنده علم وليس عنده عمل . والضالون : من عندهم

عمل وليس عندهم علم . ولا يكون الإنسان منعَمًا عليه من أهل صراط الله المستقيم إلا إذا جمع بين العلم والعمل؛ علم يهديه وعمل صالح يرقّيه إلى الله تبارك وتعالى ويبلغ به أعالي الدرجات ورفيع الرتب.

وأيضا فإن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر مثالاً آخر عجيباً عظيماً في بيان صراط الله المستقيم -سبق الإشارة إليه وأعيده تأكيداً عليه وتنبيها على أهميته- قال ﷺ : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تعوجوا ،وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) .

لاحظ الآن الصراط محفوف على جنبتيه بسورين جدارين ، وفي الجدارين أبواب ، حدّك وأنت تمشي على هذا الصراط ألا تخرج عن هذين السورين بحيث تمشي مستقيماً وعلى يمينك السورين ، لا تخرج خارج الأسوار .

ولاحظ هنا ملاحظة بديعة في المعنى الذي ترجم له المصنف : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ؛ لا تخرج إلى حيث الأهواء أو حيث البدع أو حيث الضلالات أو حيث المحرمات ، حافظ على إسلامك بأن تكون باقي داخل هذا الأسوار ماشيا في طريقك المستقيم ، لا تخرج خارج السور إلى حيث الشهوة ، ولا تخرج أيضا إلى خارج السور إلى حيث الشبهة والضلالة .

قال : ((الصراط المستقيم : الإسلام ، والسوران : حدود الله)) وحدود الله ﷻ أمِرْنا ألا نتعداها ، وحدود الله أيضا أمِرنا ألا ننتهكها. لأن حدود الله تارةً يُراد بها القربات والدين نفسه الذي أمِرنا بامتثاله ، وتارة يراد بها المحرمات ، ولهذا يأتي في هذا المعنى ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة:٢٢٩]. ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ : أي المحرمات ، ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ : أي الطريق المستقيم الذي أمِرتم بسلوكه والتزامه والسير عليه .

قال: ((والداعي الذي يدعوا من أول الصراط : كتاب الله)) ماذا يقول كتاب الله ؟ ((يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا)) كتاب الله عز وجل يأمرنا بهذا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ .

قال: ((والداعي الذي يدعي من جوف الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم)) هذا الواعظ ماذا يقول ؟ يقول ((يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)) ؛ وهذا والله منة عظيمة من الله ﷻ على المسلم أن جعل في قلبه واعظاً ، جعل في قلبه منبّها ، تجد المسلم المستقيم إذا جنحت به نفسه يوماً من الأيام إلى أمرٍ محرم أحس في قلبه وخزة ، ألم ، عدم ارتياح ، ولهذا النبي ﷺ أشار إلى هذا المعنى بقوله ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ)) يعني تجد في قلبك ريبة، انقباض ، تجد وحشة ، تجد ضيقة صدر ، تجد عدم انبساط ؛ ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)) ، فالحرام

إذا دخله الإنسان الذي هو على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى الدين قلبه ينقبض ، هذا واعظ كأنه يقول لك : ((لا تفتح الباب فإنك إن فتحته تلجه)) . ثم إذا مضى الإنسان في الحرام واستمر في الحرام يتبلد عنده هذا الواعظ بل يتعطل ، ويصبح المعروف عنده منكراً والمنكر عنده معروفاً ، وتنقلب الموازين عنده رأساً على عقب ؛ وهذه المصيبة – والعياذ بالله – ، وهو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] . فالذنب إذا وقع من العبد نُكت في القلب نكتة سوداء ، فإذا أذنب مرة ثانية نُكت نكتة سوداء إلى أن يغطي الران على القلب ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيصبح وحالته هذه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً –والعياذ بالله – .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ؛ وحَّد الصراط وعدّد السبل : لأن صراط الله ﷻ الموصل إلى رضوانه وجنات النعيم واحد ، والسبل ليست سبيلاً واحد بل هي سبل كثيرة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه . أحد أهل العلم وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال كلمة عجيبة ، قال: «إذا خرج الإنسان عن الصراط المستقيم إلى البدعة يكون أول خروجه عن الصراط المستقيم شبر ، ثم يكون ذراع ، ثم يمتد بُعده عن الصراط المستقيم إلى مالا حد له ولا نهاية» ؛ أول ما يخرج الإنسان عن الصراط المستقيم يكون بعده عنه شبر، ثم إذا زاد صار ذراعا ، ثم إذا زاد زادَ بعده عن صراط الله المستقيم ، وكلما أبعد عن صراط الله المستقيم أبعد عن السعادة وأبعد عن الفلاح في الدنيا والآخرة.

إذاً ؛ قوله ((**وجوب الدخول في الإسلام**)) يبينه ويوضحه هذه الآيات التي ساقها المصنف ، وأن الدخول في الإسلام لا يكون إلا بسلوك صراط الله المستقيم والمضيّ عليه والثبات عليه إلى أن يلقى العبد ربه وهو على هذا الصراط . وهذا لا يتحقق للعبد إلا بأمرين :

- الأمر الأول : الإلحاح على الله ﷻ بالسؤال ، وأعظم دعاء في هذا دعاء الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وكذلك سؤال الله الثبات ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ)) صح هذا الدعاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وصح عنه ﷺ أنه كان يكثر أن يقول في دعائه ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) ، ((يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ)) ، والله ﷻ يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]
- الأمر الثاني : مجاهدة النفس ؛ قال الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] يجاهد نفسه على سلوك هذا الصراط ومعرفته والعمل به والمحافظة عليه والبعد عن نواقصه ونواقضه،

يجاهد نفسه على الثبات على ذلك إلى أن يلقى الله ﷻ ، والله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

لما ذكر الآية ختمها بهذا النقل عن مجاهد ؛ ((**قال مجاهد**)) ومجاهد من علماء التابعين ((**السبل : البدع والشبهات**)) ؛ السبل في قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي: لا تتبعوا البدع ، ولا تتبعوا الشبهات التي تخرجك عن الصراط المستقيم وتبعدك عنه ، بل إن من عجيب أمر هذه الشُّبه أنها تُخرج الإنسان من الصراط المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ماضٍ عليه ثابت عليه!! أعظم ما يكون في خطورة الشبهة أنها تُخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم وتشعِره في الوقت نفسه أنه ثابت على الصراط ، ولهذا صاحب البدعة هل يُقِرّ أنه على بدعة مثل صاحب المعصية ؟! صاحب المعصية إذا نهيته عن معصيته رأساً يقول لك "ادعوا الله أن يهديني أنا مخطئ ، أنا مقصر ، أنا مذنب" ، أما صاحب البدعة إذا نُهي عن بدعته يغضب ويدافع ويحامي عن البدعة لأنه يرى أن هذا العمل هو دين الله ، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث ((إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة حتى يدع بدعته)) ، لماذا ؟ لأن صاحب البدعة يرى أن بدعته حقاً ، ويرى السنة باطلاً وضلالاً -والعياذ بالله- ، ولهذا تجده يدافع عن البدعة وينصرها ويحميها ويؤيها ؛ هذه حاله مع البدع ، لماذا ؟ لأنه يرى أنها حق . فهذه مصيبة حال أهل البدع والشبهات؛ أنهم يخرجون عن صراط الله المستقيم ويظنون أنهم على هذا الصراط ، والصراط المستقيم أمارته واضحة لا خفاء فيها وهي : أن يُبنى على الدليل ؛ على قال الله قال رسوله . لكن لو قال قائل : " إننا نعمل هذه الأعمال لأنها مجربة عندنا وعند شيوخنا " ؛ هذا ليس من صراط الله المستقيم ، أو يقول " هذا ذوقي " ، أو يقول الآخر "هذا ما هوَتْه نفسي" أو نحوه ؛ هذه ليست أمارات وعلامات على الصراط المستقيم ، علامة الصراط المستقيم : أن يبنى على قال الله قال رسوله ﷺ . ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) أخرجاه، وفي لفظ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)).

****

ثم بدا المصنف رحمه الله بسوق الأحاديث الدالة على هذه الترجمة ، وبدأ بهذا الحديث العظيم الذي عدّه غير واحدٍ من أ هل العلم من جملة أحاديث عليها مدار الدين ، فالدين يدور على أحاديث؛ منها: حديث ((إِنَّمَا

الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، وحديث ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، وحديث ((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ)) ، فهناك جملة من الأحاديث عليها مدار الدين .

وبهذه المناسبة أوصي الجميع بوصية نافعة وهي : أن يُعتنى بالأربعين النووية التي جمعها الإمام النووي رحمه الله ، لأن النووي رحمه الله عندما قصَد جمع هذه الأحاديث أراد أن يجمع الأحاديث التي عليها مدار الدين ؛ فالدين يدور على أحاديث جامعة ، وبقية الأحاديث التي هي بالآلاف ترجع إلى هذه الأحاديث ، لأن هذه أصول الدين وجوامعه . فكتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الكتاب العظيم كتاب ينبغي أن يُعتنى به . وكم هو جميل بالأب في بيته والمدرس في مدرسته والمربي في مجاله أن يُعنوا بهذه الأربعين ؛ يحفظها الأبناء وتُشرح لهم وتبيّن وتوضح فهذا فيه خير عظيم ونفع عميم ، أربعون حديثاً لا يأخذ حفظها وقتاً، من حفظه بطئ جداً يكفيه في حفظها شهر واحد ، ويُعتنى بسماع شرح هذه الأربعين أو قراءة شرحها فيما كتبه أهل العلم رحمهم الله ، ففي هذا نفعٌ عظيم لكل مسلم .

قال : ((**وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ. أخرجاه**)) : أي البخاري ومسلم .

((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا**)) ؛ «أمرنا» : أي ديننا الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام .

«أحدث» : أي أنشئ واخترع وأوجد في ديننا

«مَا لَيْسَ مِنْهُ» : أي أمراً ليس من الدين .

وهذا فيه تعريف البدعة ؛ لو قيل لك ما هي البدعة ؟ وقلت : البدعة هي أن يُحدِث في الدين ما ليس منه . أو أن يعمل عملاً ليس عليه أمر النبي عليه الصلاة والسلام كما في الرواية الأخرى ؛ أن يعمل عملاً يتقرب به إلى الله ﷻ ليس عليه أمر النبي ﷺ ؛ فهذا فيه توضيح للبدعة وتحذيرٌ منها .

قال ((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**)) : أي هذا الذي بُعث به عليه الصلاة والسلام وترك الصحابة عليه وتلقاه الصحابة منه رضي الله عنهم وصلوات الله وسلامه عليه وبلّغوه لمن بعدهم ، ومن بعدهم بلغوه لمن بعدهم ؛ هذا هو دين الله . دين الله هو : كتاب الله ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

((**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**)) : أي من أنشأ واخترع في ديننا هذا ((**مَا لَيْسَ مِنْهُ**)) أي أعمالاً ليست من الدين ((**فَهُوَ رَدٌّ**)): أي مردود على صاحبه غير مقبول منه . وهذا فيه أن البدع كلها مردودة ، حتى وأن حسُن قصد صاحبها ، ولا يكفي صحة القصد لقبول العمل ، بل لابد من سلامة العمل وموافقته للسنة .

قد مر معنا في هذا المعنى قول الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله ﷻ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] قال: «أخلصه وأصوبه» ، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم

يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» .

فالله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، أما إذا خالف السنة فإنه يُردّ ، حتى وإن كان قصد صاحبه طيباً وحسنا ؛ يرد على صاحبه ولا يقبله الله تبارك وتعالى منه . وهذا أمر ينبغي أن نتنبه له. وأضرب لكم مثالاً جميلاً جاء في السنة : أحد الصحابة أراد يوم عيد الأضحى أن يذبح أضحيته قبل الصلاة وكان قصده الذي أراده قصداً طيباً – هكذا جاءت الفكرة عنده – قال : أذبحها قبل الصلاة حتى لا ننقضي من الصلاة إلا وهي جاهزة ومهية ومطبوخة ، لأني لو ذبحتها بعد الصلاة يتأخر إعدادها إلى وقت طويل ، لكن أذبحها قبل الصلاة وتهيأ بحيث لا ينصرف الناس من الصلاة إلا وهيئتها لهم . هذا القصد قصدٌ طيّب ، قصد خيراً لم يقصد شرا ، فلما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام عمله وهو ذبح فعلاً قبل الصلاة قال له: ((شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ)) يعني ليست أضحية ، الأضحية لها وقت ؛ وقتها بعد الصلاة ، فذبحك لها قبل الصلاة مع أنه ذبحها متقرباً بها إلى الله طالباً بها ثوابه معجلاً في الخير مريداً الإحسان كل هذه لم تشفع ، قال ((شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ)) يعني ليست أضحية ، إذا كنت تريد أن تضحي فالأضحية وقتها بعد الصلاة ؛ فلا يكفي في العمل طيب قصد الإنسان أو حسن قصده بل لابد أن يجاهد نفسه في أن يقع العمل موافقا لسنة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وفي لفظ**)) وهذا اللفظ لمسلم : ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) ؛ هنا هذا اللفظ فيه فائدة زائدة على اللفظ الأول وهي : أنه قد يظن الإنسان أن الأمر المبتدع إذا لم يكن هو الذي أحدثه فلا شيء عليه ؛ فتأتي هذه الرواية دافعة هذا الوهم الذي قد يظنه بعض الناس ، قال: ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)) أي سواء كان هذا الأمر المحدَث المبتدع أحدثه الإنسان أو أُحْدِث له ؛ لا فرق ، سواء أحدثه الإنسان أو أحدثه له أشياخه من أهل الضلال والبدع لا فرق في ذلك ، الكل مردودٌ عليه ؛ مردود على من أحدَث ، ومردود على من عمل بالمحدَث ، كل هؤلاء مردود عليهم عملهم ، ولا يقبل الله تبارك وتعالى من العمل إلا ما كان صواباً، ولا صواب إلا ما كان على سنة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه .

قال رحمه الله :

وللبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى ، قيل وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) .

****

قال : ((**وللبخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) : أي إلا من قال أنا لا أريد أن أدخل الجنة . هذا أمر مستغرب ، من الذي يُعرض عليه دخول الجنة ؛ يقال له ادخل الجنة

؛ ويقول : " أنا لا أريد الجنة أنا أريد النار ، الجنة ليس لي فيها خاطر ، وليس لي رغبة فيها أنا رغبتي في النار ، أفضّل أن أكون في النار لا أرغب الجنة " !! هل أحد بهذه الصفة ؟ لا أحد يكون كذلك . ولهذا قالوا: ((**ومن يأبى يا رسول الله ؟!**)) من هو هذا الذي تعرض عليه الجنة ويقال أدخل الجنة ويقول أنا لا رغبة لي فيها ولا أريدها!! فقال النبي عليه الصلاة والسلام مبيّناً : ((**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**)) ؛ والله عندما نقرأ هذا الحديث وأمثاله نرى فيه جلياً نصح نبينا عليه الصلاة والسلام لأمته بالأساليب النافعة المؤثرة التي تأخذ القلوب مأخذاً عجيباً ، يعني هنا لما أراد أن يبين هذه الحقيقة لو أنه قال: " من عصاني لا يدخل الجنة " ألا تدل هذه الجملة تدل على المقصود؟ تدل عليه ؛ لكن من كمال نصحه وبيانه وشده للقلوب وحرصه على الناس ينوّع الأساليب في أحاديثه ﷺ ، فجاء هنا قال : ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) : أي إلا من رفض أن يدخل، فأوجد تساؤلاً في قلوبهم ((**من يأبى؟**)) من ذا الذي تعرض عليه الجنة ويعرض عليه دخولها ويقول أنا لا أريد ! قال: ((**من أطاعني دخل الجنة**)) : أطاع الرسول عليه الصلاة السلام بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وهو عليه الصلاة والسلام والرسل قبله إنما أرسلوا ليطاعوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء/٦٤] ولهذا قال: ((**من أطاعني دخل الجنة**)) ؛ فالجنة سلعة غالية ولا سبيل إلى دخولها إلا بطاعة الرسول ؛ وإلا كما قال بعض أهل العلم : «فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عليه الصلاة والسلام؟!» ، وكيف أيضاً يرام دخول الجنة وبلوغ هذا التمام في المنة بغير إتباع السنة –سنة النبي الكريم ﷺ – فهذا أمر لا يكون ، وهذا بيّن في قوله ((**من أطاعني دخل الجنة**)) ؛ الجنة لها مفتاح ومفتاحها طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإتباعه والسير على منهاجه ﷺ . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء/٦٩] . فلا يكون هذا إلا بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام .

((**ومن عصاني فقد أبى**)) : أبى أن يدخل الجنة ، الذي يعصي الرسول كأنه يقول أنا لا أريد الجنة ؛ لأن عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام يوصل إلى النار لا يوصل إلى الجنة ؛ لا يوصل إلى الجنة إلا طاعة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بامتثال أمره واجتناب نهيه .

لاحظ العموم الذي جاء في أول الحديث ؛ قال : ((**كل أمتي يدخلون الجنة**)) هذا عام ، لكن هذا العموم ليس على إطلاقه ، ولهذا لما كان ليس على إطلاقه لم يتركه النبي عليه الصلاة والسلام مطلقا وإنما قيّده قال: ((**إلا من أبى**)) ، فالعام إذا كان يحتاج إلى تقييد فإن مقتضى نصح الناصح صلوات الله وسلامه عليه ألا يتركه على إطلاقه.

وهنا تستفيد فائدة : قول النبي ﷺ ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) هل هذا العموم على إطلاقه أو مقيد يُستثنى منه شيء؟ هل يُستثنى منه شيء بحيث نقول : هناك بدع ليست ضلالة بدع حسنة ؟ هل هذا العموم على إطلاقه ؟ لو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده الناصح عليه الصلاة والسلام ، كان يكرر كل جمعة ((كل بدعة ضلالة)) ، فلو كان هذا العام ليس على إطلاقه لقيّده كما قال هنا: ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**)) ؛ فهذا يفيدنا أن مقتضى النصح – وهو الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه– ألا يترك الأمور العامة على إطلاقها إذا كانت مقيدة كما هو واضح هنا ؛ قال: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى ؟ يا رسول الله)) إلى آخر الحديث. فإذاً قوله: ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) هذا عام على إطلاقه ، ولو كان من البدع ما ليس ضلالة لبيَّن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لقال : كل بدعة ضلالة إلا ما كان من البدع مثلا كذا وكذا فهو حسن . لكنه أبقاه على إطلاقه ، فكل بدعة ضلالة ، فلا يسوغ لأحدٍ أن يأتي ويقول بعد هذا العموم المطلق أن هناك بدع حسنة . فهذا فيه خطورة جداً نبّه عليها الإمام مالك بن أنس عندما قال : ((من قال في الدين بدعة حسنه فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فما لم يكن ديناً زمن محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه فلن يكون اليوم دينا)) ، ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة . فالدين هو ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ((وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)).

وهذه فائدة ذِكرها مناسب ولاسيما مع قربنا من قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) ؛ فكل محدث في الدين مردود ، لا يستثنى من ذلك شيء ؛كل محدث في الدين وكل عمل يُتقرب به إلى الله ليس من دين الله فهو مردود على صاحبه لعموم قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) .

ولما فتح بعض الناس لأنفسهم باباً تحت البدعة الحسنة دخلوا في ضلالات كثيرة وبُعدٍ عن سنة النبي ﷺ ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : «من استحسن فقد شرَع» ، من يأتي بأمور في الدين يستحسنها فهذا يشرع في الدين ما لم يأذن به الله ؛ لأنه لو كان من الشرع لأمر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، أليس كلنا نعتقد أنه ﷺ ما ترك خيراً إلا ودل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه ؟ إذاً ما الحاجة إلى البدع ؟! يقول ﷺ : ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)) ، ونبينا عليه الصلاة والسلام بلّغ البلاغ المبين ونصح عليه الصلاة والسلام ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه؛ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وصلى الله عليه وملائكته وأنبيائه ورسله والصالحون من عباده .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ)) رواه البخاري .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : «قوله (سنة الجاهلية) يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي في شخص دون شخص ، كتابية أو وثنية أو غيرهما ، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون» .

****

قال المصنف رحمه الله وغفر له : وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ **)) ؛ أولاً هنا فيه إثبات هذه الصفة لله ﷻ أنه يبغض كما أنه ﷻ يحب ، قال في القران ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤] أي أهل الإيمان وأهل الاستقامة أهل الصلاح ؛ فهو يحبهم وهم كذلك يحبونه ، و﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، و﴿ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤] ، جاء ذكر محبته ﷻ لعباده ، وجاء أيضاً إثبات البغض في القران ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣] والمقت : شدة البغض ، فالله ﷻ يحب ويبغض .

والعاقل عندما يعرف هاتين الصفتين يجتهد غاية الاجتهاد في معرفة ما يحبه الله ﷻ ليفعله ، ومعرفة ما يبغضه الله ﷻ ليجتنبه ويتركه ، وهذا كما نبّه أهل العلم فيه الثمرة العظيمة التي ينالها من آمن بصفات الله تبارك وتعالى وأسمائه ، أما من يعطلون أسماء الله وصفاته أو يتأولونها على غير مرادها ويحرفونها عن معناها ومدلولها فإن هؤلاء يقطعون على أنفسهم وعلى غيرهم الآثار المباركة والعوائد الحميدة التي تنال بالإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته .

كم للإيمان بهذه الصفة وغيرها من الصفات من الأثر العظيم على العبد!! المسلم عندما يقرأ هذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ**)) يحذر من هذه الصفات غاية الحذر ، لأنها صفات قبيحة ذميمة يبغضها رب العالمين ﷻ ، وهذا الحذر ، وهذا الحذر وهذا الخوف الذي ينشأ عند من يثبت لله ﷻ صفاته لا يتحقق لمعطلة الصفات ممن يحرفونها عن وجهها ويصرفونها عن معناها ومدلولها . والواجب على المسلم أن يكون في هدا الباب على جادة أهل السنة ؛ إمرار صفات الله ﷻ كما جاءت والإيمان بها كما وردت دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل .

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ**)) ؛ ذِكر الرقم هو من حُسن التعليم وحسن البيان ، فإذا عرفت أن أبغض الناس إلى الله ﷻ ثلاثة فإن ذِكر الرقم يعينك على ضبط المسألة وإتقانها . لم يقل " أبغض الناس إلى الله من فعل كذا ومن فعل كذا ومن فعل كذا" ؛ وإنما ذكر الرقم من أجل أن تُضبَط ، وتكون مضبوطة عند المسلم.

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبٌ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ هذه ثلاثة خصال أو ثلاثة صفات أو ثلاثة أعمال أهلها هم أبغض الناس إلى الله ﷻ ؛ «**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» ، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ كلها تُعَدُّ من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ، والله ﷻ يقول : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] ، كل هذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ببعثة النبيين عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فالأنبياء يبعثهم الله ﷻ لإصلاح الأرض ، وهداية الخلق ، ودعوة الناس إلى الخير والفضيلة ، وتحذيرهم من الشر والرذيلة ؛ فمن الإفساد بل من أعظم الإفساد في الأرض فعل هذه الأمور ، وخُصّت هذه الأمور الثلاثة بالذكر لأنها أشد أنواع الإفساد وأخطره . والإفساد في الأرض على نوعين :

- ❖ إفسادٌ في الأرض يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .
- ❖ إفساد في الأرض يتعلق بدين الناس وعبادتهم .

وأخطر شيء من أنواع الإفساد في الأرض مما هو متعلقٌ بدنيا الناس وحياتهم : قتل النفوس المعصومة وإراقة الدماء المحرمة وإزهاق الأرواح ؛ ولهذا ذُكر هذا الأمر مضموماً إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الفرقان:٦٨] ، وهذا النوع من الإفساد الذي يتعلق بدنيا الناس وحياتهم ذكَره النبي عليه الصلاة والسلام هنا بقوله: ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ مطَّلب: يعني يبتغي ويريد ويسعى في إراقة دم مسلم بغير حق . والحق لا يحدده هوى الإنسان ومبتغاه ، وإنما يحدده شرع الله ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ : ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)) ، فإراقة الدم بغير حق من أعظم الجرم وأكبر الذنب .

قال: ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ ليهريق دمه : أي يريق دمه ويقتله بغياً وظلماً وعدوانا ، وقد جاء في الحديث ((يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسَهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ لِلَّهِ: رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي)) ، فهذا نوع من الفساد خطير جداً وهو يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .

والنوع الثاني من الفساد : فساد يتعلق بدين الناس وعبادتهم ، وهذا القسم على نوعين :

١- نوعٌ يتعلق بمحل العبادة ومكانها .

٢- ونوعٌ يتعلق بالعبادة نفسها والعمل نفسه .

وقد ذكر عليه الصلاة والسلام هذين النوعين من الفساد فقال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها .

قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها ؛ والحرم الذي فيه بيت الله وهو قبلة المسلمين ، ومهوى أفئدة المؤمنين ، وفيه يطوف الطائفون متقربين لرب العالمين له حرمة ﴿مَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] فهذا فساد يتعلق بموضع العبادة ومحلها ؛ بل يتعلق بأشرف مواضعها وأفضل محالّها ، وقد جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام أنها بمائة ألف صلاة ، وليس هناك مكان في الدنيا يوازي هذا المكان في هذه الفضيلة العظيمة ؛ ولا حتى المسجد النبوي ، لأن الصلاة في مسجد النبي ﷺ بألف صلاة ، والصلاة في المسجد الحرام تزيد عنه بمائة ضعف ، فإذاً أعظم ما يكون فساداً في الأرض يتعلق بالدين ويتعلق بمحل العبادة: الإلحاد في الحرم .

ولتلاحظ هنا : أن في كل عمل من هذه الأعمال يُذكَر أشنعه ؛ فالإلحاد في الحرم هو أعظم وأشنع أنواع الإلحاد في مواضع العبادة وأماكنها ؛ قال: ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) يعني أن يصل به الحال ويبلغ به الأمر إلى درجة أن أشرف أماكن العبادة وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً ومكانةً يلحِد فيه ، ومن يقع منه الإلحاد في أشرف محالّ العبادة وأعظمها فإن وقوع الإلحاد منه في أماكن العبادة التي هي دون هذا المكان من باب أولى . فهذا يبين لنا شناعة حال وسوء فِعال من يلحد في الحرم ؛ أي من يبلغ به الحال في تجاوزه وتعديه وظلمه وبغيه إلى درجة أنه لا يعرف للمكان فضله وشرفه ومنزلته وقدره ، والله ﷻ يختار من البقاع ما يشاء ومن الأزمنة ما يشاء ؛ حرّم مكة وحرّم الأشهر الحُرم ، حرّم أمكنةً وحرّم أزمنة ، وما يحرّمه الله ﷻ يجب على المسلم ألا يكون فيه من أهل ظلمٍ أو تعدٍّ أو تجاوزٍ أو طغيانٍ ، لأن الظلم والتعدي في كل وقت شنيع ، وفي الزمان الفاضل أشنع ، وفي المكان الفاضل أشنع ، وإذا اجتمع شرف زمانٍ وشرف مكانٍ وسوء فعالٍ فهذا – والعياذ بالله– من شر ما يكون وأفسد ما يكون .

قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ الحرم المراد به : مكة التي حرمها الله تبارك وتعالى ، وقد جاء في الحديث: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ)) ، والمراد بتحريم إبراهيم مكة : أي إظهاره حرمتها ؛ وإلا فالذي يحرم الله رب العالمين ، والمراد بتحريم النبي ﷺ للمدينة : أي إظهار حرمتها ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[النور:٥٤] . فهي بلدٌ حرام حرّمها الله ﷻ ، وقد أكد وذكَّر عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع بحرمة البلد ، وكان أهل الجاهلية يعرفون حرمته ، قال ((أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟)) قالوا : بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام ، فقال: ((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا)) .

والإلحاد أصله في اللغة : الميل والعدول ؛ يقال ألحد السهمُ عن الرمية : أي مال ولم يُصِب الهدف ، ومنه تسمية اللحد في القبر لحداً لأنه يميل عن الاستقامة إلى جهة القبلة ، والإلحاد دركات . والملحِد في الدين : هو من يكفر برب العالمين ويجعل مكان تعظيم الله وإجلاله والخضوع له ﷻ الجحد والعناد والإنكار ، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠] إما بتعطيلها ، أو جحدها ، أو إنكارها ، أو تشبيه أسماء الله وصفاته بخلقه ، أو غير ذلك من أنواع الإلحاد .

في قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ حدّد النوع المراد بالإلحاد ((ملحد في الحرم)) : أي يفعل الإلحاد ويمارس الإلحاد في الحرم ، والمراد بالإلحاد هنا : الذنوب العظام والجرائم ، ففِعْلها في كل وقت وفي كل زمان حرام ، ولكن فعلها في الحرم أشد جرماً وأعظم إثماً وأكبر خطيئةً ؛ لما قام في قلب فاعلها من عدم الاحترام للبلد الحرام الذي حرّمه الله تبارك وتعالى . قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ هذا أعظم الإفساد فيما يتعلق بمحل العبادة .

والنوع الثاني من الإفساد : إفساد يتعلق بالعمل والعبادة نفسها .

قال: ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ **مُبْتَغٍ**: أي مريدٍ وطالبٍ ، **فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**: أي يبحث ويطلب ويريد سنة الجاهلية ؛ فيسعى في إقامتها ونشرها والدعوة إليها والترويج لها ؛ فهذا إفساد ، وأيُّ إفساد أعظم من هذا ؟! الله ﷻ أصلح الأرض ببعثة المرسلين ثم يأتي من يأتي لينشر بين الناس سنة الجاهلية التي أبطلها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام !!

ولكي يظهر لك شناعة هذا الإفساد وعظم هذا الجرم ؛ تأمل في الجهد العظيم والجهاد الكبير الذي أمدّ الله ﷻ به رسولنا ﷺ ومن كان معه من الصحابة الكرام في إظهار هذا الدين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح:٢٨] ، فكان منه عليه الصلاة والسلام ومن صحابته جهود عظيمة وتضحيات وبذل في نشر هذا الدين ، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام في حال ساء فيه وضع البشرية سوءًا عظيماً وخيّم في أرجاء الأرض الظلام ، قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) يعني إلا قلة ونوادر ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قلائل جداً ، وإلا فالأرض كلها استحكمت بالظلام وخيّم الباطل في أرجائها وضرب بأطنابه في جنباتها؛، فشاع الظلام ، وانتشر الباطل ، وعمّت الخرافات ، والتبس الدين عند الناس فلا يعرفون حقاً ولا يُنكرون منكرا ؛ يراق الدم ولا يدري صاحبه بما أريق دمه ، يكفي في هذا جاهليةً عند أولئك إراقة دماء الإناث ، وهذا شاع فيهم ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩] ، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[النحل:٥٨-٥٩] ؛ جاهلية

جهلاء ، حتى ذكر أهل العلم في هذا الباب أن من جاهلية أولئك في هذا الأمر ومما امتلأت به قلوبهم من ظلام وكراهية وبغضاء للأنثى: أن بعضهم كان لا يتحمل أن تبقى له أنثى على وجه الأرض ولا دقيقة واحدة ، حتى ذكروا في كتب التاريخ أن بعضهم إذا اقترب وقت وضع زوجته يحفر حفرة عميقة بجنبها وتطلق زوجته وتلد بجنب الحفرة ، وأول ما يخرج المولود ينظر فيه الوالد؛ إن كان أنثى ما يبقى ولا لحظة واحدة ، من رحم الأم إلى الحفرة مباشرة ، مجرد ما يخرج من رحم الأم رأسا إلى الحفرة في نفس الوقت ، ربما لا يُسمع له صراخ فيرميه في الحفرة ويهيل عليه التراب . من مِثل هذه المآسي شيء كثير . أنكحة الجاهلية، عدّدت عائشة رضي الله عنها أنواعاً من الأنكحة ؛ فساد في الأعراض ، إراقة في الدماء ، انتهاب للأموال . أما عن باب العبادة والإخلاص لرب العالمين فهذا لا وجود له ؛ بل ليس إلا الوثنية والتنديد والتعلق بالتراب وبالأحجار والقبور والأشجار وتسوية هذه الأشياء بالرب العظيم والخالق الجليل ، قال تعالى : ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧ -٩٨] ، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] ، يحب حجراً مثل حبه لله ﷻ ، لا إله إلا الله! حجر لا يعطي ولا يمنع ولا يخفض ولا يرفع ولا يملك لنفسه حولاً ولا قوة فيحِبه حباً مساويا لرب العالمين !! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ انشغلوا بالإقبال على الحجارة وعلى الأشجار يعبدونها ويتبركون بها ويطلبون منها المدد والعون والشفاء والعافية ، وكان لهم في هذا الباب غرائب وعجائب .

كان بعض من أسلم يحكي شيء من هذه الغرائب ؛ مثل قول أحد الصحابة : قال كنا في سفر يعني في وقت الجاهلية ، وكان معهم حجر جميل حسن الشكل فكانوا يعبدونه في الطريق أينما وقفوا وأينما حلوا ، يقول : ففُقد هذا الحجر ونحن في الطريق ، فنادى منادٍ : يا قوم إنا فقدنا ربكم فالتمسوه – ابحثوا عن ربكم ضاع – فتفرقنا في الأودية نبحث عن الرب المفقود ، فإذا بمنادٍ ينادي : يا قوم إنا وجدنا ربكم أو شِبْهَه)) وجدوا حجر آخر ، ففرحوا وأقبلوا عليه يعبدونه ، جاهلية جهلاء !! أنقذنا الله ﷻ من هذه الجاهلية ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] ، فهذه منّة عظيمة منّ الله ﷻ بها على البشرية ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ حيث خلّص الله ﷻ بها الناس من هذه الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء.

ولما بدأ عليه الصلاة والسلام بالدعوة أوذي ﷺ أذىً عظيماً ، وحمل عليه أهل مكة حملة شنيعة ، وآذوه أذىً بالغاً، وطردوه ، ورمَوه ، ووضعوا عليه الأذى وفي طريقه ، وكالوا له أنواع السباب والشتائم ، ووصفوه بشنائع الصفات ؛ وصفوه بالسحر والجنون إلى غير ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام صابر مجاهد حتى كتب الله ﷻ لدينه الظهور ولِما جاء به التمكين ؛ مكّن له ولدينه .

وانظر –رعاك الله– وتأمل في موقف عجيب يتعلق بهذا الباب : عندما حج عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وفي يوم عرفة أشرف الأيام وأعظمها وخيرها ؛ لما وقف ﷺ في ذلك اليوم وخطب الناس ماذا قال في خطبته مما يتعلق بموضوعنا هذا ؟! ، وتأمل أن مقولته لهذه المقالة في البلد الذي كان إلى وقتٍ قريب مخيّمة فيه الجاهلية أعظم تخييم ويحارِب أهله الحق أشد محاربة ، فماذا قال عليه الصلاة والسلام في هذا الموضع وفي تلك الخطبة! ، انظر عزة الإسلام وتمكين الله تبارك وتعالى له ، قال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) ، أين وضع عليه الصلاة والسلام كل جاهلية ؟ تحت قدميه في مكة ؛ التي خيمت فيها الجاهلية وأظلم فيها الأمر وحورب فيها الحق وعودي أهله ، أعز الله تبارك وتعالى دينه وكتب له الظهور وقال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) . هنا لابد أن تنظر متأملاً : النبي ﷺ وضع الجاهلية أين!! تحت القدمين ، فكيف يليق بإنسان يدَّعي أنه متبعٌ للرسول عليه الصلاة والسلام ثم يسعى ليسُنّ في الناس سنة الجاهلية !!

مرة ثانية ؛ نبينا عليه الصلاة والسلام بذل جهداً مُضنياً وجهاداً عظيماً ونصحاً بالغاً ودعوةً متواصلة لإبطال الجاهلية بعون من الله ومد إلى أن وصل إلى هذا الموقف العظيم ، الموقف الذي ظهرت فيه عزة الإسلام والتمكين للدين فقال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ)) ، فكيف يليق بمن يدَّعي إتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ثم في الوقت نفسه يسن في الإسلام سنة الجاهلية !!

وبهذا يتبين خطورة هذا الأمر وأنه أبغض الأعمال إلى الله ﷻ ؛ ((**مُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) يعني بعد أن بذل النبي عليه الصلاة والسلام تلك الجهود الضخمة العظيمة لإبطال الجاهلية وهدمها وإلغائها ووضْعها تحت القدمين ثم يأتي أناس ليسنّوا في الإسلام سنة الجاهلية !! هذا جرمٌ عظيم للغاية وذنبٌ كبير جداً ؛ أن يأتي إنسان ويسعى ليسن في الإسلام سنة الجاهلية فيبوء بإثمٍ عظيم؛ لماذا؟ لأنه يهدم ، لأنه يفسد ، لأنه يُضِل بعد أن أُصلحت الأرض ببعثة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] .

من ينادي لتعظيم الأوثان والتعلق بغير الله والتعلق بالحروز وغيرها مما هو صرفٌ للقلوب عن التعلق بالله ﷻ هذا من أعظم ما يكون في سن سنّة الجاهلية في الإسلام ، وكذلك من يدعو إلى أنواع الخرافات التي كان عليها أهل الجاهلية والضلالات التي كانوا عليها فقد سن في الإسلام سنة الجاهلية. وسنة الجاهلية : الطرائق والأعمال التي كان عليها أهل الجاهلية وقد حاربها النبي عليه الصلاة والسلام .

وهنا يتبين لنا حاجة الإنسان أن يعرف ولو معرفةً مجملة بما كان عليه أهل الجاهلية ليحذر منه ، قال عمر رضي الله عنه ((تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ)) ، لماذا؟ لأنه تُدخل عليه الجاهلية من حيث لا يشعر ، ويُدخل عليه فسادها من حيث لا يدري ، ولهذا يحتاج الإنسان أن يكون على معرفة من خلال ما ورد في النصوص والأدلة بأمور الجاهلية ليحذر منها ، وقد نصح مؤلف هذا الكتاب المسلمين نصحاً

بالغاً بتأليفه مصنفاً قيّماً وكتابا عظيمًا نافعًا أسماه : «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» ؛ كتاب من أعظم ما يكون عدّد فيه مسائل الجاهلية وخصال الجاهلية ، وشُرح هذا الكتاب وطُبع طبعات كثيرة . وقراءة المسلم مثل هذا الكتاب ولو مرة في حياته يفيده فائدة عظيمة ؛ لأنه يعرف هذه الخصال من أجل أن يتقيها ويحذرها ويحذِّر منها .

تعلم الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

فيعرفها ليحذر منها ، " كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!! " ، يقول حذيفة ﷺ : ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ، فكتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له كتاب من أعظم ما يكون وأنفع ما يكون ؛ لأنه عدّد فيه رحمه الله مسائل الجاهلية وخصالهم وأعمالهم التي جاء الإسلام بهدمها وإبطالها ، التي وضعها نبينا عليه الصلاة والسلام تحت قدميه عندما خطب الناس في حجة الوداع.

ولعل هنا من المناسب الإشارة إلى فائدة تتعلق بمن حج : إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وضع في حجة الوداع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه ؛ فيا من أكرمك الله ﷻ بالحج ومنّ عليك بالحج فلتعُد منه وأنت متباعد ومجانِب غاية المجانبة وحذِرٌ غاية الحذر من الجاهلية وخصالها وأعمالها التي وضعها نبينا وقدوتنا صلوات الله وسلامه عليه تحت قدميه عندما حج حجته المعروفة بحجة الوداع ، وكانت وصاياه عليه الصلاة والسلام وصايا مودع ، ومن المعلوم أن وصية المودع لها شأن خاص ((كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا)) ، فمن أكرمه الله تبارك وتعالى بالحج ليستشعر هذا الأمر وليكن على حذر بالغ وحيْطة شديدة من أمور الجاهلية ، ويعينك على تحقيق هذا المرام وتحقيق هذا المطلَب الاستفادة من هذا الكتاب الذي أشرتُ إليه ؛ كتاب «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» تقرأ الكتاب وتعرف هذه الخصال وتلك الأعمال التي كان عليها أولئك وتجتهد وتجاهد نفسك في البعد عنها والحذر من الوقوع فيها مستمداً من الله ﷻ وحده العون والتوفيق.

إذاً قوله هنا ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) هذا يتعلق بالفساد في العمل ، و ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) الفساد في محل العمل ، ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) متعلق بفساد الدنيا. وكل هذه الثلاث أعظم وأشنع فساد يُعدّ في بابه وأشنع فساد يُعدّ في بابه ؛ فأعظم فساد يتعلق بمحل العبادة : الفساد في الحرم ، وأعظم فساد يتعلق بالعبادة والعمل : أن يُبتغى فيها سنة الجاهلية ، وأعظم فساد يتعلق بحياة الناس : إراقة دماءهم بغير حق . فجمع النبي عليه الصلاة والسلام هذه الخصال الثلاث في الذكر .

ثم أتبع المصنف رحمه الله هذا الحديث بنقلٍ عظيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية من كتابٍ له أيضا يتعلق بهذا الباب؛ وهو كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» وهو كتاب عظيمٌ جداً في بابه ، جمع فيه مصنفه رحمه الله من أنواع الأدلة والبراهين في باب التحذير من التشبّه بأصحاب الجحيم ، أصحاب الضلال ،

أصحاب الباطل ، أصحاب الكفر . والحاجة ماسة ولاسيما في زماننا إلى قراءة هذا الكتاب الذي كثر في الناس التشبه بأعداء الدين ، وقد بسط شيخ الإسلام رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم ما يتعلق بالتشبه وأنواعه وأسبابه ، والدلائل من الكتاب والسنة على خطورة هذا الأمر والتحذير منه ، وجمَع من ذلك ما لا تجده في مؤلَّف آخر .

فهذان كتابان عليك بهما :

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم .
- مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها .

قال : ((**قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : قوله «سنة الجاهلية» يندرج فيه كل جاهليةٍ مطلقة أو مقيدة أي في شخص دون شخص كتابيةٍ أو وثنيةٍ أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون**)) .

أورد المصنف رحمه الله هذه الكلمة لشيخ الإسلام لأن فيها بيان للمراد بسنة الجاهلية ، وهذا البيان يُحتاج إليه حتى لا يظن ظان أن المراد بسنة الجاهلية أمر معيّن مخصوص أو عمل معيّن ، فأراد أن ينبّه أن سنة الجاهلية كل أمر كان عليه الجاهلية مما جاء الإسلام بهدمه ومخالفته . وخرج من هذا الكلام بضابط ؛ أن الجاهلية : كل أمر مخالف لما جاء به المرسلون ، لأن المرسلون جاءوا بالحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾[يونس:٣٢]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء :٨١] ، فالجاهلية : كل أمر خالف ما عليه المرسلون ؛ سواء في باب العلم أو في باب القول أو في باب العمل، حتى لو أن إنساناً فعل أموراً هي من خصال الجاهلية وهو عالِم بأنها محرمة عالم بدليل تحريمها ففِعله هذا يُعدّ جاهلية ؛ فالجاهلية: هي مخالفة ما جاء به المرسلون ؛ سواء في العلم أو القول أو العمل . وشيخ الإسلام ابن تيمية له شرْح لهذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ**)) في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» في صفحات تبلغ الأربع أو الخمس صفحات ، وذكر فيه فوائد ولطائف مهمة جداً ينبغي على طالب العلم أن يقف عليها.

من خلال هذا التعريف يتبين لنا أنّ من ابتغى في الإسلام شيئاً من أعمال اليهود أو أعمال النصارى أو أعمال الوثنيين أو أعمال أياً من المنحرفين عن الحق والدين كل أولئك من المبتغين في الإسلام سنة الجاهلية ، فلا تُحصر الجاهلية بما كان عليه المشركون في مكة ، ولا تُقيَّد الجاهلية بعملٍ واحد من أعمالهم ؛ بل سنة الجاهلية: كل أمر يخالف ما جاء به المرسلون .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا ، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»

****

ثم أورد هذا الحديث قال: ((**وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) ؛ خص في هذه الوصية بالذكر القرّاء ، مع أن هذه الوصية في حق كل مسلم ، ولكنه خص القراء الذين لهم عناية بالقرآن وحفظ له وعناية بإتقانه وضبطه لأنهم أصبحوا موضع قدوة للناس ومحل نظر لهم ، فقال محذّراً وموصياً للقرّاء : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) أي الزموا الاستقامة . والاستقامة : هي معرفة الحق والثبوت عليه ولزومه ، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود:١١٢] ، ولا يمكن للإنسان أن يستقيم كما أمِر إلا أن يعرف أولاً بم أمِر؟ ثم يحافظ عليه ؛ فيعرف المأمور ويحافظ عليه محافظة تامة إلى أن يلقى الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] . فالاستقامة: هي معرفة الحق ولزوم الحق.

وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن قارئ القرآن يحتاج مع قراءته للقرآن وحفظه له إلى أمرين لابد منهما ؛ الأول: معرفة معاني القرآن ودلالاته . والثاني: العمل بالقرآن . وهذا هو المراد بقوله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[البقرة:١٢١] قال العلماء : تلاوة القرآن حق التلاوة بأمور ثلاثة : بالحفظ ، والفهم ، والعمل . والعمل نفسه يسمى تلاوة ؛ ليست تلاوة القرآن مجرد إتقان حروف القرآن ؛ تلاوة القرآن : بالحفظ والفهم والعمل بالقرآن . وبعض الناس ينشغل بالقراءة وتنميقها وتحسينها عن الغاية التي أنزل لها القرآن وهو العمل كما نبّه على هذا المعنى الحسن البصري بقوله : «أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً» وأصبحت صناعة ، وأما العمل بالقرآن فهذا لا يُهتم به ، وقد قال الحسن البصري عن جماعة القراء في زمانه : «يقول أحدهم: قرأت القرآن كله فما أسقِط منه حرفا -يعني قراءة متقنة مجوّدة مضبوطة- ، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى عليه القرآن في خُلق ولا عمل، - ثم قال الحسن- لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، وإذا كان الناس مثل هذا فلا كثر الله في الناس مثل هؤلاء» ؛ هكذا قال الحسن في زمانه !!

فالقرّاء لهم اعتبار خاص ولهم وضع خاص ، فخصّهم حذيفة ﷺ بهذه الوصية العظيمة قال : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) يعني الزموا الاستقامة ، والله يقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ، ويقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

((**اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا**)) ؛ لأن القارئ للقرآن تميّز عن غيره بأمر، وهو : قراءته القرآن، وعنايته به ، وحفظه له ، ومحافظته عليه ، وإكثاره من تلاوته ، ومراجعة معانيه ودلالاته ، وكتاب الله عز

وجل كتاب يهدي للتي هي أقوم. ((فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا)) ؛ لأن سبْق من كان هذا شأنه سبْقٌ بعيد ؛ لأن لديه علمٌ واسع وفهمٌ كبير ومعرفة بكتاب الله ﷻ كتاب الهداية.

قال: ((**فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) ؛ إذا كان قارئ القرآن حافظ القرآن ضابط القرآن يميل يمين وشمال وينحرف هنا وهناك فهذا أخطر ما يكون ، لأن القرآن سيأتي يوم القيامة حجةً عليه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)) رواهما مسلم في صحيحه. فالخطورة فيما يتعلق بأهل القرآن أشد ولهذا خصهم حذيفة بهذه الوصية ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) .

وإيراد المصنف رحمه الله لهذا الأثر عن حذيفة في ((باب الدخول في الإسلام)) لأن فيه بيان حقيقة الإسلام؛ وهي : الاستقامة على دين الله ﷻ بدون التواء لا يمين ولا شمال وبدون روَغان ، هذا هو الإسلام ، حقيقة الإسلام: الاستقامة على دين الله كما أُمر العبد دون أن ينحرف عنه لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ وهذا الأمر مطلوبٌ من كل مسلم ؛ ليس مطلوب من القراء فقط ؛ مطلوب من كل مسلم، لكن حذيفة رضي الله عنه خص القراء بالذكر لأنهم في موضع القدوة ، والمسؤولية في حقهم أعظم بما آتاهم الله ﷻ من الحفظ والقراءة والمعرفة بكلامه ﷻ ، فكان الأمر في حقهم أعظم ولهذا خصهم بالذكر ، وإلا فإن الاستقامة وعدم الانحراف ذات اليمين وذات الشمال أمر مطلوب من كل مسلم . فالمصنف رحمه الله أورد هذا الأثر في ((**باب الدخول في الإسلام**)) لأن فيه بيان حقيقة الدخول في الإسلام ، وأن حقيقة الدخول في الإسلام: الاستقامة على دين الله كما أمِر العبد دون أن يميل عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ لا إلى بدع محدثات ، ولا إلى سننٍ جاهلية ، ولا إلى غير ذلك من أنواع الضلالات .

قال رحمه الله:

وروى عن محمد بن وضاح عن حذيفة: أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحِلَق فيقول ؛ فذكره .

****

((**وعن محمد بن وضاح**)) ؛ محمد بن وضاح له كتاب مطبوع في البدع والنهي عنها وهو من علماء المالكية ، وكتابه هذا قيم ونافع جداً في التحذير من البدع وبيان خطورتها على الناس .

فأورد رحمه الله –أعني محمد بن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها– ((**أنه**)) الضمير هنا يعود إلى حذيفة .

أنه أي حذيفة ((**كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول" فذكره** ")) ؛ يقف على الحِلق التي فيها يجتمع الطلبة لقراءة القرآن وحفظه ، فكان يوصيهم بهذه الوصية . وكم هو عظيم جداً أن ينشأ من يحفظ القرآن على

رعاية الاستقامة والعناية بها ، لا أن ينشأ قارئ القرآن مع حروفٍ لا يحرص على فهم معناها فضلاً عن أن يعتني بالعمل بما تقتضيه .

وهذا جانب فرّط فيه الناس كثيراً ، فاتجهوا إلى حفظ حروف القرآن مع إهمال بشكل كبير لفهم المعاني والعمل بما يدل عليه القرآن الكريم ، ونشأ عن ذلك أن يخرج الطالب وهو يظن في نفسه أنه من أهل القرآن لأنه جوده وأتقن قراءته ؛فيظن في نفسه أنه من أهل القرآن بمجرد هذا الحفظ وهذا الإتقان ، ولكنه مفرِّط في جانب كان محل اهتمام الصحابة واهتمام السلف رحمهم الله؛ وهو الفهم ومن ثم العمل ، فجمعوا بين العلم والعمل في قراءتهم لكتاب الله ﷻ . يجلس الطالب في الحلْقة عند أستاذه ويحفظ عل سبيل المثال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] ويكتب له المعلِّم مئة من مئة لأنه أتقن الحفظ وأتقن المخارج وأتقن التجويد ؛ ويكون في البيت عاق لوالديه ، من أسوأ ما يكون معاملةً في البيت مع والديه ، ويأخذ درجة كاملة في هذه الآية وهو في الحقيقة صفر !! إذا كان عاق لوالديه ويحفظ هذه الآية فهذه الآية حجة عليه ليست حجة له ؛ فهو لم يأخذ مئة ، أخذ فيها صفر إذا كان بهذه الصفة ، وقل مثل ذلك في بقية آي القرآن .

فيحتاج الطلبة في الحلَق إلى أن يربَّوا على العمل بالقرآن ؛ إذا حفظ أمثال هذه الآيات ينبَّه ويذكّر ويقال له اتق الله وانتبه ؛ هذا رب العالمين يأمرك بكذا كما قال ابن عباس: «إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين امنوا فأرعِها سمعك ، فإنه إما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه» ، تربية على العمل وعلى الامتثال وعلى الطاعة والاستجابة .

يقرأ الطالب في الحلقة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢] وبمجرد ما تنتهي الحلقة يلتفت إلى زميله ويغتاب ، وهو للتوّ قرأ الآية وللتو حفظها وللتو سمّعها لشيخه وأستاذه !! وقُل مثل هذا كثير ؛ فيحتاج إلى هذه الوصية . إذا كان حذيفة يتتبع الحلق في زمانه يوصي بهذا الأمر فكم هي حاجة الناس في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وكثرت فيه الصواد والصوارف عن دين الله تبارك وتعالى !! .

قال رحمه الله :

وقال أنبأنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق قال : قال عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه– : «ليس عامٌ إلا والذي بعده أشر منه ، لا أقول عامٌ أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ،

ولا أميرٌ خير من أمير ؛ لكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم ؛ فيُهدم الإسلام ويثلم» .

****

ثم ختم رحمه الله هذا الباب بهذا الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : ((**ليس عامٌ إلا والذي بعده شرٌ منه**)) ؛ هذه الكلمة صدرت من ابن مسعود ﷺ على وجه التحذير ، والتأكيد التام على المحافظة على الإسلام والدخول فيه ، والباب ((باب الدخول في الإسلام)) ؛ فأراد المصنف رحمه الله أن ينبه بإيراده لهذا الأثر إلى أن الناس مع مضي الأيام والأوقات الشر يزداد ويكثر ، فيحتاج المسلم حتى يكون من أهل هذا الدين وأهل الثبات فيه واللازمين للدخول فيه كما أمر الله ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ يحتاج إلى جهاد ومجاهدة ومواصلة في العلم وطلبه وتحصيله ، والبعد عن الآفات التي تصرف الناس عن الحق والهدى ؛ لأجل هذا أورد المصنف رحمه الله هذا الأثر في خاتمة هذا الباب ، لأن ابن مسعود أراد التحذير بقوله «**ليس عام إلا والذي بعده شر منه**» ؛ أي انتبهوا واحذروا وعليكم بالمحافظة على الإسلام والرعاية له والعناية به والحرص على تعلّمه والتفقه فيه والحذر من نواقضه ونواقصه .

ثم نبّه ابن مسعود ﷺ أنه لا يعني بـ «شرٍ منه» فيما يتعلق بالدنيا ؛ ((**لا أقول عام أمطر من عام**)) ؛ يعني ليس المراد ب«شر منه» : أي بقلة المطر أو قلة الأرزاق أو حصول الجدب ، ((**لا أقول عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام**)) لا أعني بقولي شر منه فيما يتعلق بالأمطار والخصب والأرزاق.

((**ولا أمير خير من أمير**)) أيضاً لا أعني هذا الأمر ؛ إذًا ماذا ؟!

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) يعني الشر يكون : بقلة العلماء وقلة الأخيار ؛ قلة العلماء الذين يبينون للناس دين الله ﷻ ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويصلحون ما أفسد الناس . وقلة الأخيار الذين هم على الاستقامة وعلى المحافظة وعلى طاعة الله ﷻ ، فيكونون في مجتمعاتهم قدوات للآخرين ، إذا شرد الإنسان إلى بعض المعاصي ورأى هؤلاء كانوا له قدوة .

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ؛ وإذا ذهب العلماء والأخيار ظهر الفساد وبرز حمَلته ، لأن حملة الفساد لا يبرزون إلا إذا عُدِم أو قلّ حملة الحق . وهذا فيه تنبيه إلى أن وجود حملة الحق ودعاته مزّق للباطل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١] ، وأهل الباطل لا يجرؤون في نشره إلا إذا ضعف حملة الحق عن حمله وبيانه .

قال: ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ماذا يحدث إذا ذهب العلماء والخيار؟

قال: ((**يحدُث أقوام**)) أي يوجد أقوام ((**يقيسون الأمور بآرائهم**)) ؛ يعني يكونون في تقريرهم لمسائل الدين يبنون ذلك على الآراء ، لا يعرفون الكتاب ولا يعرفون السنن وليس لهم عناية بالكتاب ولا بالسنة فيقيسون الأمور

بآرائهم ؛ شأنهم كما قال عمر «أعيتهم السنة أن يحفظوها فأعمَلوا عقولهم» ، فيقيسون الأمور بآرائهم ؛ تجده يقرر الحكم ليس مبنياً على آية ولا مبني على حديث ؛ وإنما مبني على الرأي ، والرأي هنا : هو الرأي المذموم الذي أُحدِثت به البدع وأنشئت به الضلالات ، وعُطلت به أسماء الله ﷻ وصفاته ، والاشتغال بالأقيسة الباطلة التي تُعطل بها الصفات وتلغى بها الأحكام ، "لو أنه كذا لكان كذا" هذه حجة هؤلاء ، ليست الحجة عندهم قال الله ولا قال رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإنما الحجة أقيسه عقلية .

ماذا يحدث إذا وجد هؤلاء ؟ قال : ((**فيُهدم الإسلام ويُثلم**)) ؛ أي بوجود هؤلاء .

إذاً ابن مسعود رحمه الله ورضي عنه قال ذلك محذِّرا وموصيًا بالعناية بالعلم والعمل ؛ العلم النافع كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، والعمل الصالح الذي شرعه الله ﷻ وأمر عباده به ، وأن الإنسان –ولاسيما عند كثرة الشر وكثرة أهله ودعاته– عليه أن يجتهد في تعلّم الدين ومعرفته لعل الله ﷻ يكتبه من أنصار الدين . ودين الله تبارك وتعالى منصور بعز عزيزٍ وذل ذليل ، فيجاهد نفسه على أن يكون من أنصار هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتوفيق بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وما شاء الله كان ، فالأمور بيده تبارك وتعالى وطوع تدبيره ، وقد كان نبينا ﷺ يقول كل يوم بعد صلاة الصبح ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)) .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.